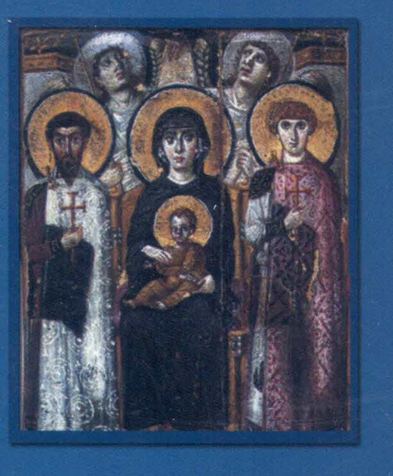


سلسلة كراسات قبطية

العدد الثاني - يناير ٢٠١٣

ماهية علوم القبطيات.. مصطلحات وتعريفات

إعداد: دعاء محمد بهي الدين





إن مكتبة الإسكندرية بهذه السلسلة الجديدة تضع لبنة وتؤسس لمرحلة جديدة تدفع بمزيد من الاهتمام العلمي بهذا المجال الحيوي وتلك الحقبة الهامة من تاريخ وتراث مصر الثري عبر آلاف السنين، والتي لم تنل قدرًا كافيًا من الدراسة والبحث، رغم أن التراث القبطي يزخر حضاريًا وتاريخيًا بإنتاج فكري وعلمي واجتماعي فريد مازال كثير منه قائمًا ومحفوظًا في العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية والموسيقى والشهور القبطية الزراعية؛ وغيرها من المظاهر التي يشترك فيها ويمارسها المصريون جميعًا، بصرف النظر عن انتماءاتهم العقائدية أو الثقافية.

الدكتور إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

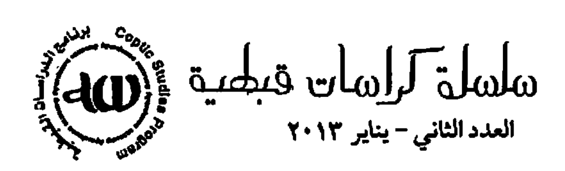




ماهية علوم القبطيات.. مصطلحات وتعريفات

إعداد: دعاء محمد بهي الدين




سلسلة كراسات قبطية
العدد الثاني - يناير ٢٠١٣
Coptic Studies Program
برنامج الدراسات

افتتاحية

انطلاقًا من سياسة مكتبة الإسكندرية في حفز وتشجيع الباحثين الجادين على نشر إنتاجهم العلمي المتميز وإتاحته للجمهور، وتأكيدًا على أهداف المكتبة في إرساء مفاهيم التعايش والتسامح وتعميق روابط الجماعة الوطنية المصرية من خلال البحث العلمي والدراسات الرصينة الجادة.. يأتي صدور هذه السلسلة الجديدة "كراسات قبطية"، والتي تنضم لباقة السلاسل والدراسات العلمية الهامة التي تصدرها المكتبة في مجالات متخصصة عديدة.

يصدر العدد الثاني من هذه السلسلة كباكورة الإصدارات العلمية لبرنامج الدراسات القبطية، وذلك لتنضم لمجموعة الإصدارات البحثية التي تهتم بمجالات التراث والتاريخ القديم والمعاصر والآثار والدراسات المستقبلية؛ وغيرها من مجالات الإنتاج العلمي المتميز لإدارة المشروعات الخاصة.

كما أن صدور هذه السلسلة يحقق واحدًا من الأهداف الرئيسية التي دفعت المكتبة لاستحداث "برنامج الدراسات القبطية"؛ وهو التأكيد على أن التراث عمومًا بكل طبقاته هو شأن وطني عام غير مرتبط بعقيدة دون غيرها. فالتراث القبطي، شأنه شأن الفرعوني والإسلامي، هو تراث أنتجه المصريون جميعًا؛ وبالتالي فتسجيله وتوثيقه ونشره والحفاظ عليه هو واجب وطني، ومهمة يجب أن يضطلع بها كل من يؤرقه ماضي ومستقبل هذا البلد.

لقد عمد القائمون على هذه السلسلة إلى أن تملأ إصداراتها فراغًا كبيرًا في الذاكرة والثقافة الوطنية المصرية، حيث ستتوالى أجزاؤها تباعًا لتلقي الضوء على مجالات الدراسات القبطية المختلفة، كالعمارة والفنون والآثار واللغة القبطية وغيرها، وذلك بالاعتماد على المتخصصين في هذه المجالات، وبأسلوب سهل بسيط مختصر ومركز أيضًا، حتى تتحقق الفائدة المرجوة سواء للدارسين أو للمهتمين عمومًا بهذا المجال الذي لايزال في طور التكوين.

إن مكتبة الإسكندرية بهذه السلسلة الجديدة تضع لبنة وتؤسس لمرحلة جديدة تدفع بمزيد من الاهتمام العلمي بهذا المجال الحيوي وتلك الحقبة الهامة من تاريخ وتراث مصر الثري عبر آلاف السنين، والتي لم تنل قدرًا كافيًا من الدراسة والبحث، رغم أن التراث القبطي يزخر حضاريًّا وتاريخيًّا بإنتاج فكري وعلمي واجتماعي فريد مازال كثير منه قائمًا ومحفوظًا في العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية والموسيقى والشهور القبطية الزراعية؛ وغيرها من المظاهر التي يشترك فيها ويمارسها المصريون جميعًا، بصرف النظر عن انتماءاتهم العقائدية أو الثقافية.

والمكتبة تأمل في أن تكون هذه السلسلة وغيرها من الإصدارات القادمة والأنشطة التي يتبناها برنامج الدراسات القبطية، حافزًا ودافعًا للمراكز البحثية المتخصصة والهيئات والجهات المهتمة بتراث مصر العريق، إلى زيادة الاهتمام والمشاركة مع المكتبة في مشروعات توثيق وتسجيل ونشر هذا التراث؛ وذلك تأكيدًا على دور المكتبة ورسالتها في حفظ ذاكرة مصر الوطنية عبر العصور.

الدكتور إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

من هو «القبطي»؟

ظهرت عبارة قبط أو قُفط لأول مرة في مرويات الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في أواخر القرون الوسطى. والكلمة مأخوذة عن العربية قبط (وجمعها أقباط)، وهي تعني سكان مصر المسيحيين. بينما يُدعى أبناء الطوائف المسيحية الأخرى في الشرق، كالموارنة والأرمن والروم الكاثوليكيين وسواهم «النصارى»، نسبة إلى مدينة الناصرة. والواقع أن كلمة «قبط» هي مجرد اختصار للكلمة اليونانية أيجبتوس التي تعني مصري وهي مختصرة بدورها عن كلمة مصرية أخرى، وهي "حت كا بتاح" أي مقر الإله بتاح، وهو الاسم الكهنوتي لـ "ممفيس" عاصمة مصر الفرعونية.

ومع دخول العرب لمصر أصبحت تعني حصرًا المسيحين المصريين، فالانتماء القبطي أصبح ينطوي على ثلاثة أنواع من التمايز: عرقي وديني ولغوي؛ حيث إن علماء القرن السادس عشر الميلادي الذين درسوا مصر المسيحية يطلقون كلمة قبطي على كل ما يتعلق بتظاهرات الثقافة القبطية، وعلى الطقوس والفن واللغة القبطية، وهذه الأخيرة كان هناك صلة بينها وبين اللغة المصرية القديمة. ففي أواخر القرن التاسع عشر اعتمد الباحثون نهاية القرن الثالث الميلادي تاريخًا لظهور الكتابة واللغة القبطيتين، وقد واصلت الثقافة القبطية تطورها وازدهارها بعد دخول المسلمين لمصر بل إنه لازال يتابع طريقه حتى أيامنا هذه، على الرغم من انكفاء اللغة القبطية إلى الطقوس الكنسية منذ القرن الرابع عشر وانحسارها عن الحياة اليومية للأقباط الذين أصبحوا منذ ذلك الوقت يتكلمون العربية. ولقد ساهم الأقباط بصورة فعالة في تكوين التمازج الثقافي الثري الذي عاشته مصر في القرون الوسطى، مثلما اليوم في تكوين الهوية المصرية المعاصرة. يتعين علينا إذًا رفض

اختزال الحقبة القبطية من تاريخ مصر في الفترة ما بين القرنين الثالث الميلادي والسابع الميلادي؛ لأن مثل هذه النظرة المبتسرة الضيقة تُغيب تيارات الاستمرارية الثقافية التي تُغذي مصر منذ الفتح الإسلامي حتى الآن.

الدراسات القبطية

وقد عرّف العالم مارتن كراوزة علم القبطيات بأنه «فرع من الدراسات الشرقية التي تهتم بدراسة اللغة والثقافة في مصر والنوبة، فالمفهوم الواسع بمعنى دراسة الأدب والدين والتاريخ والآثار والفن. وهي تمتد من العصور القديمة المتأخرة إلى العصور الوسطى أو حتى عصرنا الحالي. وهي تتداخل مع عدد من فروع المعرفة الأخرى مثل الدراسات المصرية، والدراسات البيزنطية، وتاريخ الأديان مثل الدراسات الغنوصية، والمانيكية ودراسات اللاهوت، والكتاب المقدس، وتاريخ الكنيسة، والتاريخ العام، والقانون الكنسي الذي ينظم الكنيسة مثل اختيار رجال الدين وشروطهم وغيره - والعمارة، والآثار».

من مميزات الشخصية المصرية أنها صاحبة ذاكرة تراكمية تاريخية، فإذا كان الإنسان في فترة حياته المحددة يحوي في أعماقه ذاكرة إنسانية لكل تجاربه وخبراته - وأول الإيقاعات في المكون الإنساني المصري هو المكان، وجغرافيته التي أكسبت المصري اعتداله وطبيعته الوسطية، وثانيها: الموروث الديني، فإن هذا الإنسان قد آمن بالبعث ونظر إلى الحياة الأخرى باعتبارها امتدادًا طبيعيًّا للحياة الدنيا، وظل الفكر الديني شاغله الشاغل عبر فترات تاريخية. وثالثها: التواصل مع الماضي لاحتفاظه بذاتيته مع تأثيرات سطحية لا تغيِّر من جوهره أو معدنه، سواءً كان في عصر وثني أو مسيحي أو إسلامي حمل بذرة وجذور شخصيته في كيانه فلبس ملابس الإغريق والرومان فتغير ظاهره ولم يتغير باطنه، وظل الموروث القديم في أعماقه سواءً كان الحاكم أجنبيًّا يونانيًّا أو رومانيًّا وظل هو القبطي المصري.

إن كلمة قبطي تسبق ظهور المسيحية، فلا نستطيع أن نستخدم الاسم أو نضع تحديدًا للفترة على أساس التسمية. ولقد استخدم العرب اسم القبط لتعريف المصريين في فترة قبل الإسلام، ثم ظلت مستعمله مع الفتح الإسلامي كاسم عام لأهل مصر، والذين كانوا جميعًا على الدين المسيحي. فأصبح المتداول بعد ذلك أن مَن دخل الإسلام أصبح مسلمًا. وإن ظلت بعض الكتابات الإسلامية تطلق اسم القبط على جميع فئات المصريين الدينية.

حددت الفترات التاريخية بالدول الحاكمة، فقيل مصر اليونانية أو البطلمية أو الرومانية أو البيزنطية؛ استنادًا لوجود نظام سياسي حاكم ممن سيطر على مقاليد الحكم في البلاد، وبالإشارة إلى نوعية الحكم السياسي وطبيعة الحاكمين. أما الأقباط فهم المصريون عامة الشعب، ولا يمثلون نظامًا سياسيًا حاكمًا فمصر القبطية هي مصر المصرية، مصر هي عامة الشعب، وهي ليست محددة بفترة نستطيع أن نضع لها بداية ونهاية، وظل الشعب سواء كان تحت الحكم اليوناني أو الروماني مصريًا. ولكن من الممكن القول مصر المسيحية وفي رأيي أنه من الممكن تحديد الفترة المسيحية مع بدايات القرن الأول وبداية انتشار المسيحية وتمتد هذه الفترة خلال الفترة الإسلامية.

هناك عناصر أصلية في المكون الذاتي المصري لم تتغير سواءً كان الحاكم معتنقًا الوثنية أو المسيحية أو الإسلام ولا شك أن هناك بعض الصفات الدخيلة كالفطريات غير المتجذرة على سطح الماء نتجت عن الاحتكاك والتعامل المستمر مع عناصر غير مصرية سيطرت على مقدراته ولكن لم تغيره كإنسان فاتُّهِمَ بالسلبية والخضوع لحكامه أيًا كانوا كنوع من التقية لشرورهم، ولكن السلبية أحيانًا تُعـدُّ موقفًا ورفضًا ونوعًا من المقاومة الإنسانية لما يجري عليه وحوله. هذه السلبية لا تخفي تحتها بلادة أو استسلامًا، وإنما هي كسطح هادئ يخفي تحته مياهًا جوفية تتفجر من حين لآخر في شكل ثورات ذات عنف ليس في طبيعته أو في مكونه

الأصلي، أو في شكل سخرية مريرة وفكاهة تحوي مرارة، أوفي شكل التفاف حول الدين واتخاذه لرفض واقع مُجبر على تقبُّله. فهو شعب وسط معتدل وهبته الطبيعة أرضًا سهله خصبة مرتبطة بفيضان ووسائل ري ومواعيد حصاد محددة فتعوَّد أن يرتبط بالله وقدره والمحافظة على موروثه الفكري. وهناك العديد من التحليلات لشخصية المصري من (هيرودوت) (وسترابون)، ومن غيرهم عبر الأزمنة والعصور إلى عصرنا الحالي.

بدايات المسيحية في مصر

حسب وصف الكتاب المقدس؛ فإن لمصر موقعًا خاصًا من المشيئة الإلهية؛ فإبراهيم أبو المؤمنين عاش زمنًا على ضفاف النيل، كما أن يوسف أصبح وزيرًا لدى فرعون، أما موسي فقد حصَّل في مصر علمًا واسعًا ودرس كل حكمة المصريين، كذلك فإن النبي «حزقيال» في العهد القديم وعد بأن «الرب سيعرِّف المصريين بنفسه، وسيعرف المصريين ربهم»، وبطبيعة الحال لم يفُت المسيحيون الأوائل أن يربطوا بين هذه النبوءة والقصص الإنجيلي عن هروب العائلة المقدسة لمصر.

إن الأدلة تُجمع على أن المبشِّر القديس مرقص هو الذي كوَّن أول نواة مسيحية في الإسكندرية بين عامي ٦٢م و٦٨م، لذلك دائمًا ما يحمل رئيس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية لقب بطريرك الكرازة المرقسية.

انتشرت الديانة المسيحية أولاً بين أبناء الجالية اليهودية في الإسكندرية، ثم انفتحت على المصريين المتأثرين بالمعتقدات اليونانية، ومن بعدهم سائر سكان وادي النيل، وذلك قبل التمرد الكبير والقضاء على اليهودية في مصر بين الأعوام ١١٥-١١٧م.

ظهرت المسيحية وسط كمٍّ هائل من العبادات الوثنية وعبادة الأباطرة وتعدُّد الآلهة المحلية والوافدة من الشرق؛ وقد كان لكل مدينة إلهًا أو إلهة، ولكل حرفة

أو تجارة حاميها. وقد اقتنع عامة الشعب بأن البقاء على الديانات القديمة إنما هو من مقتضيات بقاء الدولة، وهي السياسة التي أقنع الحكام بها عامة الشعب. وقد كان المواطن المصري متمسكًا بديانته ومعتقداته الوثنية؛ أملاً في التخلص من الأزمات الاقتصادية والسياسية المحيطة به. وقد لجأ المصري إلى الدين كعادته دومًا في وقت الأزمات والأوضاع المتردية، وعلى الرغم من ذلك فلم تشبعهم هذه العقائد والديانات المتنوعة روحيًّا؛ حيث رأوا فيها مجرد أشكال لا كيان لها ولا أساس فيها. ومن هنا بدأ الناس يتطلعون إلى عقيدة تسمو بهم إلى آفاق الروحانية، فهذا الخليط الثقافي - الذى امتزجت فيه العناصر اليونانية بالعناصر الشرقية امتزاجًا واضحًا لا ينفصم عراه - هيأ لذلك أرضًا صالحة نبتت فيها المسيحية، ووفر من الضمانات والمستلزمات الضرورية ما ساعد على قيام المسيحية وانتشارها.

تهافت الناس على اعتناق المسيحية لما رأوا فيها من قِيَم ومُثل وأخلاقيات طالما بحثوا عنها على مدى تاريخهم الديني. وقد رفضت المسيحية ما قبلها من أديان وعبادات مثل عبادة الإمبراطور؛ مما جعلها في مواجهة مباشرة مع الإمبراطور، فأصبحت المسيحية - ذلك الدين الجديد في مجموعة أفكاره وتعاليمه الأخلاقية وفلسفته في الخلود وعقيدته الراسخة - قادرة كما يبدو على تلبية المطالب الروحية والفكرية والاجتماعية. وعلى الرغم من المقاومة التي أبدتها الوثنية في مواجهة المسيحية فإن المسيحية كانت في تقدم مستمر بينما أظهرت الوثنية ضعفًا في مكنونها الداخلي. وقد بدأت المسيحية في الإسكندرية أولاً، هذه العاصمة التي كانت تموج بالتيارات الفكرية، ويجتمع فيها أجناس متباينة من البشر، فكان من الطبيعي حينئذٍ الاصطدام بالفكر الوثني في الإسكندرية. ومن هنا فإن المسيحية كان عليها أن تقاوم في اتجاهين؛ الأول: اضطهاد الحكام، والثاني: الأديان والفلسفات التي كانت قائمة بالفعل في المجتمع السكندري آنذاك. ومن هنا حدث الصراع بين المسيحية والوثنية، ومن أجل تغلُّب كل فريق على الآخر درس

المسيحيون الفلسفة لدحض الأفكار الوثنية، ومن ناحية أخرى قام الوثنيون بدراسة العهد القديم والجديد؛ لمهاجمة المسيحيين ومحاولة إنكار هذا الدين الجديد.

بدأت الوثنية في القرن الثالث الميلادي تضعف شوكتها أمام الاتجاه المسيحي المتنامي، وقد تصدى أفلوطين لحل المشكلة الدينية عن طريق الفلسفة مبتدئًا بالفلسفة ومنتهيًا بالفكرة الإلهية، فكان يؤمن بالثالوث، ولكنه مختلف تمامًا عن الثالوث المسيحي، وأكثر صعوبة في الفهم. وفي رأيه أيضًا أن الكون كله ينزع إلى الخير. وكانت فلسفته ذات طابع ديني. واستمرت هذه المدرسة حتى القرن الرابع الميلادي. وكان آخر تلامذة هذه المدرسة هي الفيلسوفة هيباتيا الشهيرة بابنة ثيون التي لقيت مصرعها على يد المتعصبين من المسيحيين في بداية القرن الخامس الميلادي.

إن ظهور المسيحية وانتشارها قد واجه عقبات؛ بعضها داخلية، والأخرى خارجية، وكانت أهم عقبة داخلية هي ظهور الفلسفة الغنوصية.

الغنوصية

انتشرت هذه الفلسفة في منتصف القرن الثاني الميلادي، وتطورت بسرعة في الأقاليم المصرية، وقد أسهمت في بلورة الفكر المسيحي في تلك الفترة في الوقت الذي لم تستطع فيه الكنيسة السيطرة على تعدد الفلسفات؛ لأنها كانت تحت سيطرة الاحتلال الروماني.

ونتيجة لتضارب الأديان في هذه الفترة من ناحية ولانتشار المدارس الفلسفية من ناحية أخرى فقد نشأت هذه الفلسفة الغنوصية؛ حيث أخذت من الأديان جوهرها في الإيمان بوجود الإله، وأخذت من فلسفة فيلون وأفلوطين الجانب الصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية.

وقد اعتبر الغنوصيون أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله، وحطوا من قيمة المادة، واعتبروها شرًا يودي بصاحبه إلى الهلاك والانحطاط إلى أدنى الدرجات الإيمانية.

إن الغنوصية بذلك قد وضعت العقل فوق الدين، هذا العقل الذى يستطيع أن يرفض بعض المعتقدات، وينكر المعجزات وما هو خارق للطبيعة أي أن الغنوصية قد أنكرت ركنًا هامًا من أركان الديانة المسيحية؛ ألا وهي المعجزات التي لا يمكن تفسيرها طبقًا للقوانين التي تحكم عالم البشر. والغنوصية خليط عجيب من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والأفكار المقتبسة من الفلسفات اليونانية المختلفة والثقافات الشرقية. ويؤمن الغنوصيون بأن المسيح مجرد إنسان من بني البشر، وأن ابن الله قد هبط عليه عند تعميده ثم تركه ساعة الألام ويستندون في ذلك إلى ما جاء في العهد الجديد "إلهي إلهي لماذا تركتني" إنجيل مرقص (١٥: ٣٤) ويرون أنه لا يجوز لابن الرب أن يولد وأن يكون رضيعًا، وبالتالي فلا يليق به أن يموت على الصليب، فهذه الأشياء حدثت ليسوع الإنسان وليس لابن الرب السماوي. ومما هو جدير بالذكر أن الغنوصية كانت منافسًا خطيرًا للمسيحية في فترة ظهورها وبداية انتشارها، إلا أنه على الرغم من ذلك نجد أن الغنوصية قد ساعدت المسيحية على الانتشار وذلك عن طريق حثّها على ترك الديانات القديمة لما بها من قصور ونقص.

انضم إلى الفلسفة الغنوصية الكثير من الوثنيين واليهود والمسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة على الرغم من أن الغنوصية قد أثّرت تأثيرًا واضحًا على المدرسة اللاهوتية المسيحية في الإسكندرية بعد أن كيّفتها المسيحية حسب معتقداتها وفكرها فخلقت منها غنوصية، وكان من أبرز أساتذتها كليمنس وأوريجنيس.

كليمنس: أثيني الأصل وُلد في أثينا خلال القرن الثاني الميلادي، واستقر في الإسكندرية، واعتنق المسيحية بها، وتولى رئاسة مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وقد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين وتفاسير الكتاب المقدس، واعتقد فقط في اللوجوس (الكلمة) وفى ذروة مجده الديني والعلمي اضطر إلى الهرب إلى فلسطين، وأن يعيش متخفيًا حتى وفاته؛ بسبب الاضطهادات التي شنها الإمبراطور دقلديانوس عام ٣٠٣م.

أوريجنيس: (١٨٥- ٢٥٤م) تتلمذ أوريجنيس على يد أستاذه كليمنس، قُتل والده أثناء اضطهادات الإمبراطور سفيروس. ويُعد أوريجنيس من أبرز الشخصيات التي ظهرت في تاريخ الكنيسة المسيحية، وقد تولى رئاسة مدرسة الإسكندرية اللاهوتية في الثامنة عشرة من عمره، وقد ظهرت بتلك المدرسة نهضة كبيرة أثناء تولي أوريجنيس رئاستها، وقد جاهد للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة، إلا أنه أخذ عليه التطرف في بعض آرائه، وهو ما أدى - بعد وفاته عام ٢٥٠م أثناء اضطهادات الإمبراطور ديكيوس - إلى ظهور الجدال حول آرائه وأفكاره. وقد استمر هذا الجدال حتى القرنين الخامس والسادس الميلاديين.

تعرض المسيحيون بشكل عام لاضطهادات عنيفة على يد الأباطرة الرومان؛ بسبب اعتناقهم للمسيحية منذ القرن الأول حتى الاعتراف الرسمي بالمسيحية على يد الإمبراطور قنسطنطين وإعلانه لمرسوم ميلان عام ٣١٣م وإعلان الديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة من قِبل الإمبراطور ثيودوسيوس في ٣٩١م. كانت الإسكندرية وقتئذ أحد أبرز مراكز المسيحية في العالم، وأصبحت بعد فترة وجيزة البطريركية الثالثة بعد روما والقسطنطينية.

كنيسة الإسكندرية والإيمان المسيحي

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية هي من الكنائس الأرثوذكسية المشرقية، وهي مؤسسة على تعاليم القديس مرقص الذي رافق مار بطرس وبولس وكان يخدمهما،

وكان بطرس يسميه ابنه كما ورد في رسالة بطرس الأولى: "يسلم عليكم مرقص ابني". في بطرس، الرسالة الأولى، الإصحاح ٥ الآية ١٣، ومرقص بشّر بالمسيحية في مصر خلال فترة حكم الحاكم الروماني "نيرون" في القرن الأول، بعد حوالي عشرين عامًا من انتهاء بشارة المسيح وصعوده إلى السماوات. وقد كان أول شخص يؤمن بالمسيح في مصر إسكافي ذهب إليه القديس مرقص بمجرد وصوله إلى مصر؛ لإصلاح حذائه الذي اهترأ من السفر، فصرخ الإسكافي إلى الله عندما دخلت الإبرة التي يعمل بها في يده، وهنا بدأ القديس مرقص يشرح له من هو الله، وكيف أتى المسيح لخلاص البشر، فآمن الإسكافي وأهل بيته.

وبالرغم من الاتحاد والاندماج الكامل للأقباط، فقد استمروا ككيان ديني قوي، وكوّنوا شخصية مسيحية واضحة في العالم رغم انفصالهم عن معظم الكنائس برفضهم مجمع خلقدونية، فأدى ذلك إلى انعزال الكنيسة القبطية. والكنيسة القبطية تعتبر نفسها مُدافعًا قويًا عن الإيمان المسيحي، وأن قانون مجمع نيقيه الذي تُقِرُّه كنائس العالم أجمع، قد كتبه أحد أبناء الكنيسة القبطية ؛ وهو البابا أثناسيوس.

وتؤمن الكنيسة القبطية بسبعة أسرار (أسرار الكنيسة السبعة)؛ وهي سِر المعمودية، وسر الميرون (التثبيت)، وسر التناول، وسر التوبة والاعتراف، وسر الكهنوت، وسر الزيجة، وسر مسحة المرضى. فسِر العماد يتم بعد أسابيع قليلة من الميلاد عن طريق تغطيس كل الجسم ثلاث مرات في ماء مُصلًى عليه. أما عن سر الميرون، فيتم برشّ الجسم بزيت الميرون بعد العِماد مباشرة. وبالنسبة لسر الاعتراف فيتم بصورة دورية على أب الاعتراف، وهو سر هام لممارسة سر التناول. ومن المناسب أن تعترف كل العائلة أمام كاهن واحد؛ لتجعل منه مستشارًا عائليًا. وعلى عكس كل الأسرار المقدسة، فسر الزيجة هو الوحيد الذي لا يمكن عمله خلال فترة الصوم. تعدُّد الزوجات غير مُتاح حتى لو كان مُعْتَرَفًا به بقوانين البلد.

والطلاق غير مسموح به إلا في حالة الزّنا، ويمكن عمل بُطلان زواج في حالة الزواج على ضُرّة، أو بعض الحالات القصوى الأخرى، التي يجب أن يتم مراجعتها عن طريق مجلس أساقفة خاص. ويمكن أن يتم طلب الطلاق عن طريق الزوج أو الزوجة، ولا يتم الاعتراف بالطلاق المدني. لا يوجد لدى الكنيسة القبطية أي مانع أو اعتراض على القوانين المدنية للبلاد، طالما لا تتعارَض مع أسرار الكنيسة المقدسة، ولا يوجد لدى الكنيسة قانون أو موقف رسمي ضد بعض الموضوعات المثيرة للجدل (كالإجهاض مثلًا)، وفي الواقع فالكنيسة ترفض وضع قانون لذلك. (فمثلاً، الإجهاض يتعارض مع مشيئة الله)، فالكنيسة تُفَضّل أن يتم التعامل مع مثل هذه الأمور حسب كل حالة على حدة عن طريق أب الاعتراف؛ لأنه يمتلك تفويضًا كاملاً من الله بالحكم على مثل هذه الأفعال بأنها آثِمة من عدمه.

إن عبادة القديسين أمر مرفوض تمامًا من الكنيسة القبطية، ومع ذلك، فطلب شفاعاتهم (كطلب شفاعة السيِّدة العذراء مريم) هو شيء ثابت في أية صلاة قبطية؛ فالسيدة العذراء مريم والدة الإله تحتل مكانة، وكل كنيسة قبطية تُسمى على اسم قديس شفيع خاصة في قلوب جميع الأقباط.

تؤمن الكنيسة كذلك بالصوم، وتعتبر الصوم بحسب طقس الكنيسة القبطية من أطول مدد الصوم مقارنة بسائر الكنائس المسيحية. ويبلغ مجموع طول أيام الصوم مائتي وعشرة أيام في العام، منفصلة عن بعضها، ولعلّ أبرزها الصوم الكبير، والصوم الصغير، وصوم أسبوع الآلام المُسمى في الطقس القبطي "البصخة المقدسة"، وصوم نينوي، والصوم الذي يسبق عيد انتقال العذراء، وصوم الرسل. ويكون الصوم بالامتناع عن تناول الطعام والشراب بين فترتي الشروق والغروب والامتناع عن تناول أية منتجات حيوانية طوال فترة الصوم، غير أنها عادة ما تُبَسّط حسب السنّ والحاجة والمرض وسوى ذلك.

إدارة الكنيسة وهيكليتها

البابا

بابا الإسكندرية هو أعلى سلطة روحية وتنفيذية في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. ويعود استعماله للقب بابا إلى القرن الثاني، ومن ثم جاء مجمع نيقيه عام ٣٢٥ ليقرّ الإسكندرية كمركز من مراكز المسيحية الخمسة الكبرى أي بطريركية، إلى جانب أنطاكية والقدس والقسطنطينية وروما. أما ولاية بطريرك الإسكندرية فهي تشمل وفق تقسيم المجمع المذكور كلاً من مصر والسودان والحبشة وليبيا. وبحكم الهجرة التي ظهرت منذ القرن التاسع عشر فإن للبابا سلطة على ما يعرف باسم "أبرشيات الاغتراب". كلمة بطريرك تعني "أب الآباء" وهي تدلّ على رئاسته للأساقفة والمطارنة الخاضعين للولاية البطريركية المذكورة. أما مصطلح "بابا" فهو للإشارة أيضًا للتقدم في المرتبة وكنوع من التقدير والتبجيل. اللقب الرسمي للبابا هو "صاحب القداسة" وخليفة القديس مرقص وبطريرك الكرازة المرقسية، وقد توالى حتى الآن مائة وسبعة عشر بابا على رئاسة الكنيسة.

إن طريقة انتخاب بابا الإسكندرية قديمة ومعقدة للغاية، تمتد منذ القرن الأول حتى الآن، واشتملت على أكثر من صيغة، منها أن يقوم البابا القائم بترشيح أحدهم ليقوم المجمع المقدس لبطريركية الأقباط الأرثوذكس بانتخابه، غير أنه يحق لهم ألا ينتخبوه، ومنها أن يكون انتخابه أشبه ببيعة من قِبَل الأساقفة والشعب. منذ قيام الدولة المصرية حديثًا، نظّم انتخاب البابا بقانون صادر عن مجلس الشعب أو رئيس الجمهورية، وآخر تعديل لنظام انتخاب البابا كان في عهد جمال عبد الناصر عام ١٩٥٧. ينصّ القانون على كون المنتخب أن يكون من حملة الجنسية المصرية وراهبًا لم يسبق له الزواج، وقد تجاوز الأربعين من العمر وقضى في الرهبنة خمسة عشر عامًا على الأقل بموجب الأنظمة المستوحاة من التقاليد الكنسية. يجب أن

يجتمع المجمع المقدس خلال شهرين من تاريخ خلو المنصب لانتخاب البابا الجديد. وخلال هذه الفترة يقدّم الراغبون بالترشح طلبات الترشيح للقائم بأعمال البطريرك شرط أن يؤيده في ترشيحه ستة أساقفة أو اثنا عشر عضوًا من أعضاء المجلس الملي العام. وعملية الانتخاب ليست مقصورة فقط على الأساقفة والمطارنة بل تشمل أيضًا أقباطًا مدنيين؛ بحيث يكون اثنا عشر قبطيًا عن كل مطرانية ويدعى هؤلاء "أراخنة" أي من وجهاء الأقباط، وفق شروط معينة حددها القانون. كذلك يشارك ممثلون عن مجموعة من الكنائس المتحدة مع الكنيسة القبطية. وقبل انفصال كنيسة التوحيد الأرثوذكسية الإثيوبية كان يشارك في الانتخاب أربعة وعشرون ممثلاً معيّنًا من قِبَلها. أما بالنسبة للعملية ذاتها فهي تُقَسَّم إلى مرحلتين؛ المرحلة الأولى: هي اجتماع المولجين الانتخاب في دار البطريركية بالقاهرة للإدلاء بأصواتهم. وبعد فرز الأصوات ينتقل من حصل على أعلى ثلاثة أصوات إلى المرحلة التالية التي تُقام في الأحد الأول للحدث، وهي القرعة بين الأسماء الثلاثة المرشحة لاختيار أحدها، بعد أداء صلوات مخصوصة بالمناسبة. في حال لم يحصل أي مرشح على توافق عامة الناخبين؛ فيكون من وقعت عليه القرعة هو بابا الإسكندرية الجديد، ويتولى إعلانه من الكاتدرائية المرقسية بالعباسية القائم بأعمال البطريرك. ولدى انتخاب البابا يظلّ في منصبه حتى وفاته، ما لم يقم المجمع المقدس بعزله، وهذا لا يحدث إلا في الحالات الخطيرة، كالخروج عن الإيمان، ويعتبر من عُزل محرومًا.

صلاحيات البابا غير محددة في قانون خاص، غير أنه بوصفه الرئيس الأعلى للكنيسة القبطية فهو صاحب الكلمة الفاصلة في جميع القضايا التنفيذية أو التشريعية، غير أن القرارات الخطيرة لا يمكن للبابا أن يتخذها دون التشاور وموافقة المجمع المقدس، كعزل أحد الأساقفة. سوى ذلك، فإن النظام الكنسي في جميع الكنائس التقليدية ومنها الكنيسة القبطية هو نظام لامركزي، أي يترك للأساقفة والمطران شئون إدارة الأمور التنفيذية في أبرشياتهم أو مطرانياتهم

الخاصة؛ ولعلّ من أبرز مهامّ البابا، سوى موقعه الديني "كأب للآباء ورئيس للرؤساء" هو رسامته للأساقفة والمطارنة بمشاركة أساقفة قائمين، أما القسس والرهبان فيحقّ للأسقف تعيينهم، كما يحقّ للبابا فعل ذلك. كذلك فإن البابا يعتبر رمز الكنيسة وممثلها، وأشبه بقدوة لسائر الأقباط سواءً أكانوا إكليروسيين أم لا.

الفن والثقافة القبطية

كلمة قبط أو "جبت" kypt، حُرّفت من الكلمة اليونانية ιγϋπτός وهو الاسم الذي أطلقه الإغريق على مصر، والتي ترجع في الأصل إلى الاسم المصري القديم الذى أُطلق على مدينة منف في عصر الدولة الحديثة h.t-ka-pth والتي تعني معبد روح الإله بتاح. كما كان يطلق اسم منف مجازًا على مصر كلها، فإلى اليوم تُسمى المحافظة باسم عاصمتها. ولو أننا جردنا كلمة أيجبتوس التي أُطلقها الإغريق على مصر منذ دخولهم إليها من علامة الرفع (س) والزائد في بداية الكلمة (أب) فنستخلص منها كلمة جبت أو قبط، وهو اللفظ الذى استخدمه العرب فيما بعد؛ ليطلقوه على جميع سكان مصر المحليين أو أهل مصر بصفة عامة. وبعد ذلك بقيت هذه الكلمة تشير فقط إلى مسيحيي مصر؛ لأن كل مَن دخل الإسلام أُطلق عليه مسلمًا.

أُطلقت كلمة أقباط على أعضاء الكنيسة القبطية من قِبَل الكنائس العالمية منذ القرن الخامس الميلادي، عندما انشقت الكنيسة المصرية عن بقية الكنائس العالمية؛ بسبب الجدل الذى صار حول طبيعة المسيح في ٤٥١م في خلقدونية، نجد أن لفظة قبطي أصبحت إشارة إلى أمور تتعلق بالكنيسة الأرثوذكسية في مصر، عندما تستخدم لفظة قبطي في التاريخ الكنسي فهي دلالة وإشارة مباشرة إلى الكنيسة المصرية المُستقلة عن بقية الكنائس العالمية.

ظلت بعض الكتابات الإسلامية في الفترة المبكرة تطلق اسم قبط على جميع فئات المصريين الدينية، وكانت التفرقة تتم على أساس أن هناك قبطيًا مسيحيًا وقبطيًا مسلمًا، وهذا هو التعريف الصحيح؛ لأن كلمتَي قبطي ومصري لهما نفس المعنى وأن الاختلاف الوحيد بين اللفظين هو أن كل الأقباط مصريون بينما ليس كل المصريين أقباطًا.

هناك آراء ترجح أن كلمة قبط جاءت مشتقة من كلمة كفتوريم؛ وهو أحد أبناء مصرايم بن حام بن نوح الذي أتى إلى مصر التي سميت بعد ذلك باسمه، وقد قام مصرايم بتقسيم أقاليم مصر على أولاده فمنح كلاً منهم إقطاعية خاصة به، ولما كان كفتوريم هو أكبر أبنائه فقد أعطاه قفط نسبة إلى اسمه. وهو ما أكده المقريزي قائلاً أن سكان وادي النيل كانوا مقسمين إلى قبائل، وقفط كانت واحدة من تلك القبائل نسبة إلى قفطايم أو كفتوريم بن مصرايم وهو الاسم الذي أُطلق على كافة أنحاء البلاد.

تم ذكر كفتوريم بن مصرايم بن حام في الكتاب المقدس، وبالتالي فإن كلمة قبطي سواء استمدت من العبارة الفرعونية h.t-ka-pth أو حُرفت من الكلمة اليونانية أيجبتوس أو نسبة إلى كفتوريم أو قفط أو ربما مرجعها إلى كل هذه الأسماء عبر العصور إلا أنها تعني مصري.

يُعرف "باهور لبيب" عبارة الفن القبطي بمعناها الدقيق بأنها "فن كنائس الرهبنة في وادي النيل من القرن الخامس للميلاد حتى الفتح العربي" أو بعبارة أدق فن مصر المسيحية خلال هذه الحقبة، ولا يمكن التحدث عن فن قبطي قبل تلك الفترة؛ إذ كان الفن السائد حتى القرن الخامس الميلادي هو الفن الهلنستي، فقد كانت مصر مهدًا لأقدم فن مسيحي وكان هذا الفن المسيحي هو نواة للفن القبطي، الذي جمع بين طياته الفنون المصرية واليونانية والرومانية.

إن الفن هو الأداة اللازمة لإتمام عملية الاندماج بين أفراد المجتمع، فهو يمثل قدرة الإنسان غير المحدودة على الالتقاء بالآخرين وعلى تبادل الآراء والخبرات فيما بينهم، وهذا ما نهجه الفن القبطي الذي لم يكن إنتاجًا فرديًّا بل كان سلوكًا اجتماعيًّا نتج عنه فن عامٌّ شمل المجتمع المصري كله، إلا أن تطور الفن القبطي كان تطورًا بطيئًا جدًّا لم يعبر عن نفسه إلا بعد عدة قرون؛ وذلك بسبب التأثيرات المختلفة التي اكتسبها منذ نشأته. وقد أسبغت عليه المسيحية التجريد، فكل شيء أساسه الروح والجسد تكون وظيفته الأساسية هي احتواؤه على الروح، فالفن نشأ نتيجة لظروف عصره والجمال أصبح شيئًا ثانويًّا عند الفنان القبطي. وأصبح الاهتمام الأكبر بالروحانيات فقط، ولذلك فقد لجأ الفنان منذ البداية إلى استخدام الرمز؛ ليعبر عن أفكاره ومعتقداته وكذلك التعبير عن الشخصيات الدينية المقدسة؛ وهو الأسلوب الذي كان أكثر ملاءمة لأوضاع المسيحيين قبل الاعتراف بالمسيحية. إن الفنان القبطي رأى في نفسه أنه مسيحي مخلص، فبالتالي كره الماديات واتجه إلى الرمز، بل وبدأ يهمل النِّسب التشريحية في الرسوم، فأصبحت رسومًا ركيكة إلى حدٍّ بعيد. وقد سخر الفنان القبطي كل العناصر الفنية المختلفة لخدمة الرمز وأعطى للرمز أهمية كبيرة في حين أغفل بقية العناصر الفنية الأخرى.

كانت السمة الرمزية التجريدية هي التي تعبر عن المفهوم الروحاني، وقد انتشر ذلك في المجتمع المصري منذ دخول المسيحية وبداية الفن القبطي. هذا الأسلوب كان نتيجة النظرة العدائية – التي انتشرت بين المصريين في تلك الفترة – لمفهوم الاستعمار السياسي والفكري والديني القائم على أرضها في ظل الحكم الروماني المستبد.

على الرغم من تفرد الفن القبطي بأسلوبه المميز فإن بعض علماء الآثار يتهمونه بالجمود والسطحية. وقد كان هذا الجمود وتلك السطحية سمتَيْن من أساسيات

الفن بل كانتا سِمَتَيْن مقصودتَين سواءً في النحت أو التصوير، وبذلك فقد حَلّت الرمزية بدلاً من الواقعية والتجريدية محل المثالية، فقد عبر الفنان بالرمزية عما لم يستطع التعبير عنه بطريقة مباشرة.

استخلص الفنان من الدين عدة رموز، واستمد البعض الآخر من الفنون المصرية القديمة واليونانية – الرومانية وألبسها لباسًا مسيحيًا؛ لتخدم عقيدته الجديدة، فقد كان كل شيء مسخرًا لتلك الديانة. فالاتجاه الديني الجديد بما يدعو إليه من بُعد عن ملذات الحياة وشهواتها والعمل بما ينفع البشر في الحياة الأخرة كان هو المسيطر، ولذلك فقد خلق الفن الرمزي التجريدي؛ ليعكس أفكاره الروحانية، وقد اتسمت عنده الفكرة بالجرأة والبساطة والاعتماد الكلي على الزخرفة.

كان الفن الروماني من أهم الفنون المعاصرة للفن القبطي الذى اتسم بأنه فن سياسي من الدرجة الأولى ويتجلى ذلك في فن البورتيرهات الرومانية الخاص بالأباطرة والذى يُموّل من قِبَل الدولة. بينما الفن القبطي لم تكن ترعاه دولة أو حكومة فكل ما تركه الفن من آثار هي مبانٍ دينية من كنائس وأديرة، وما تحويه تلك المباني من أيقونات ولوحات جدارية وملابس القديسين ومجموعات النسيج وأدوات الحياة اليومية. وتلك المخلّفات الأثرية هي التي أنتجها الشعب ولم يولِها الحكام أي اهتمام، بينما تظهر عظمة الفن الروماني في الآثار الرومانية الباقية حتى الأن التي تشهد ببراءة وقوة وعظمة الإمبراطورية الرومانية.

سمات الفن القبطي

١- الشعبية: إن السمة الشعبية كانت من أهم سمات هذا الفن، والشعبية هنا ليس المقصود بها التقليل من قيمة وشأن هذا الفن، كما يتصور البعض، ولكن الشعبية هنا في الأسلوب والتنفيذ. فقد نشأ الفن من فكر الشعب وإيمانه بالعقيدة التي بلورت كل نواحي الفن القبطي، وأسهمت في تربية عقول

العامة. هذه السمة التي انفرد بها الفن القبطي لم تكن موجودة في أيٍّ من الفنون التي سبقته. فقد كانت مهمة ودور الفن القبطي أصعب بكثير من تلك الفنون؛ إذ كان عليه أن يتحمل عبء إنتاج فَنٍّ خاص به نجح في إظهار ذاتيته الفنية والدينية.

وهو كفن أصبح حرًّا في كل أبعاده الفنية؛ حيث نشأ بعيدًا عن سيطرة وهيمنة الحكام؛ حيث كان الشعب يُشرف عليه بنفسه وينفق عليه من ماله الخاص دون أن يتلقى أية مساعدة من حكومته المستبدة، فالفن القبطي في مصر كان دائمًا فرعًا متألقًا ومتميزًا من فروع الفن الشعبي استطاع أن يعبر بخامات بسيطة ومتواضعة عن فكره وتدينه.

وقد يرى البعض أن كلمة شعبية تضم كل عناصر وأفراد الشعب إلا أن المقصود بالشعبية كما ذكرنا الأسلوب والتنفيذ الشعبي الذى لا يراعي النسب الجمالية؛ لأننا نستطيع الجزم بأن كل أفراد الشعب قد اعتنقوا الديانة المسيحية بل ظل الكثير منهم على الديانة الوثنية ربما حتى القرن الخامس الميلادي، والدليل على ذلك استمرار وجود العبادات المختلفة، مثل عبادة إيزيس التي ظل لها معتنقون في تلك الفترة.

٢- الفن القبطي هو رؤية إبداعية مركبة من فنون مختلفة، صاغها الفنان المصري نتيجة امتصاصه لكافة المقومات والتأثيرات الفنية المصرية واليونانية والرومانية، ثم السورية والساسانية فهو ثمرة ما قبله من فنون، فنرى تداخل الماضي بجذوره مع الحاضر؛ ليصطبغ كل ذلك بالمسيحية الوليدة؛ لينتج فنًّا ذا مواصفات خاصة ربما لا يضاهي حرفة النحات المصري ولا تناسق الجسد اليوناني؛ فالبعض اعتبر ذلك تراجعًا، ونظر إليه كفنٍّ غير مكتمل النضج، إلا أن البعض الآخر اعتبره مرحلة تعكس صورة حقيقية لمجتمع اختار أسلوبًا فنيًّا معينًا.

٣- فن ذو طابع ديني نستطيع أن نتلمس بوضوح طغيان الوازع الديني والعقائدي، فالفن كان ظاهرة دينية؛ لاقترانه دائمًا بالمتغير الديني في المجتمع المصري. هذه السمة الدينية هي التي جعلت الفنان يتخذ نمطًا جديدًا في الفن لم يكن مُتعارفًا عليه من قبل تمثل في الاتجاه الروحاني الذي ظهر واضحًا في فن تلك الفترة. فقد ظهرت الوجوه كأنها تنظر إلى ما وراء العالم والعيون كبيرة ومتسعة والأجسام قصيرة والوجوه صُوِّرَت من الأمام وليس en profile وغير متناسبة مع الجسد وتعبر عن فكرة الروحانية، فالفنان بإظهار تلك السمات في تصوير الأشخاص، إنما يريد النفاذ إلى روحها وليس تصوير الشكل الخارجي تصويرًا فوتوغرافيًا بعيدًا كل البعد عن الماديات، وربما أن هذه النزعة الروحانية هي التي أسبغت على الفن شيئًا من الغموض استطاع أن يجمع بين القصص الديني والموروث الحضاري القديم، فلقد كان فنًا ليس هدفه الارتقاء بالفن في حد ذاته ولكن فن مُكَرَّس لخدمة الكنيسة وعقيدتها وتعاليمها.

٤- فن اتسم بالبساطة، فلما كانت نشأة الفن في الريف لذلك فقد نقل عن الريف بساطته وبدائيته وتفاصيله الفنية: يعنى بالفكرة أكثر مما يعنى بالمظهر، يهتم بالأسرار الدقيقة أكثر مما يلقى بالاً للجمال والأناقة ولا يراعي النِّسب، فقد رأى في رعايتها ما يبعده عن هدفه. وقد ورث الفن القبطي هذه السمة من الفن المصري القديم الذى اهتم بالموضوع أكثر من اهتمامه بالشكل والتفاصيل، وأخذت مقاييس الجمال تخضع لأحاسيس جديدة.

٥- تميز الفن بالمرونة، فقد عكس هذا الفن ما يحيط به من ظروف وأوضاع سياسية كانت هي الأساس في تكوين الفن، فعندما كان المواطن مضطهدًا سياسيًا كان له أسلوب مختلف في الفن عن أسلوبه بعد الاعتراف الرسمي بالمسيحية. فالفن هنا كان انعكاسًا لظروف العصر الذي ينشأ فيه، فقد شارك هذا الفن المواطن المصري في دفاعه عن ديانته ومذهبه ليس من منطلق ديني فقط، وإنما

أيضًا هي نزعة قومية نابعة من محليته الشديد والتصاقه الكامل بتوجهات الشعب الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية؛ لذا أطلق علماء الاجتماع على هذه النوعية من الفن أنه فن وليد عصره؛ لذلك كانت الوطنية من أهم سمات هذا الفن التي شاركت بجدية في أحداث تلك الفترة، كانت رسالة الفن القبطي أنه كفن نشأ من داخله عمل يدعو إلى الوحدة والتآلف بين الأفراد جميعهم. كان الفن القبطي بتلك الخاصية فنًّا مميزًا ومختلفًا عن بقية الفنون المسيحية الأخرى، سواء في القسطنطينية وأنطاكية وروما؛ لأنه فن امتزجت فيه الوطنية بالوازع الديني.

٦- كان للفن القبطي سمات خاصة في تنفيذ الأشكال الأدمية، فقد اختفت منها الملامح القوية والتفصيلات الدقيقة إلى الحد الذى تشابهت معه الوجوه، وكان تصوير القديسين بعيون واسعة؛ للتعبير عن الطهارة والصفاء الروحي والنفسي، وتصوير الأشخاص برءوس كبيرة وعيون جاحظة تنظر للأبدية وشعر مجعد قصير وأجسام عادة ما تكون بدينة وقصيرة وذوي ابتسامة فاترة، وقد صور الراقصين بأبعاد متناسقة تعطي انطباعًا بالحركة السريعة، وهي نفس سمات تصوير الآلهة في الأساطير. وقد استخدم الفنان خطوطًا متنوعة في تقديم العناصر الأدمية من خطوط مستقيمة ومنحنية تحاكي الطبيعة، وتكون أقرب إلى المشاهد، وعادة ما كانت النساء ترتدين خواتم وقلائد وأقراطًا وتيجانًا فوق رءوسهن وتصور من الجانب وليس من الأمام وانتشر تحوير النِّسب الطبيعية. وتعد هذه السمات استمرارًا واتصالاً لطابع الفن الذي ظهر في مصر القديمة، والذي اتصف بالسكون والجمود والسطحية والانصياع للتقاليد؛ وهي كلها مشتركة مع الفن القبطي.

لم يكن الفن القبطي فنّ بلاطٍ يلبي طلبات الملوك والأمراء كما جرت العادة لدى الفراعنة والأباطرة البيزنطيين، بل كان فنًّا محليًّا وشعبيًّا؛ إذ كان الفنانون والحرفيون الأقباط يتمتعون بمهارة وإتقان كافة الفنون فيما عدا فن الفسيفساء ونحت التماثيل المجسمة. وقد تركت المعطيات التاريخية والجغرافية والدينية بصماتها على التعبير الفني لدى الأقباط، فظهر هذا التعبير في عمارة الكنائس والأديرة وفي النحت والرسم اللذين كانا يزينان هذه المعالم، وكذلك في الطقوس الجنائزية التي تُستخدم فيها هذه الفنون الثلاثة الرئيسية. يحتل النسيج مكانة مرموقة في الفن مقارنة بغيره من الفنون، كذلك احتلت صناعة الكتب وتزيينها مكانة هامة، وأيضًا أشغال البرونز والعظم والعاج والخشب وصناعة الخزف والزجاج. فهذه الصناعات جميعها شكّلت مقومات الفن المصري في الفترة الممتدة ما بين أواخر العصور القديمة وبداية العصر المسيحي. وقد تطور الفن القبطي عبر مراحله المختلفة، وكانت أولاها مرحلة التكون (القرن الثالث الميلادي - الرابع الميلادي)، ومرحلة الازدهار (القرن الخامس الميلادي - السابع الميلادي)، ثم مرحلة التحول داخل البيئة الإسلامية الجديدة التي انخرط فيها (ابتداءً من القرن السابع). والفن القبطي بشكل عام قد أبدى عدم اهتمام بالقواعد الفنية ومقاييس المنظور، ولكنه كان يحمل رؤية خاصة فنجد أن نظرة العينين القبطيتين تحمل أكثر من مجرد النظر، لكنها تحمل رؤيا خاصة تحمل في جوهرها التراث المصري القديم وتُمصر تمامًا التأثيرات الإغريقية الوافدة. فالفن القبطي هو الفن المصري الوحيد الذى تلتقى عنده جميع فنون مصر.

وعندما نتحدث عن الثقافة المصرية؛ فهي ثقافة أصيلة الكيان عريقة المصدر حازت على أمتن المقومات التي يمكن أن يقوم عليها شعب أو تُبنى بها حضارة مجتمع، بإمكانها التصدي للتحديات؛ فهي ثقافة تستمد معتقداتها من التعاليم المسيحية والتقاليد المصرية القديمة. وتعتبر اللغة من أهم وسائل الاتصال الحضاري

والثقافي لأية حضارة. ومن هنا كانت اللغة القبطية هي الأداة التي عبرت وصورت نتاج البوتقة الحضارية والثقافية التي جمعت خلاصة الثقافة المصرية القديمة والأساطير اليونانية والقوة الرومانية والحكمة المسيحية، كل هذه الثقافات انصهرت جميعها معًا في بوتقة واحدة منتجةً ثقافة قبطية، فالثقافة القبطية هي عربية اللسان، مصرية المفهوم والمضمون وبتفاعلاتهما في الماضي ومع الحاضر.

العمارة القبطية

إن الآثار القبطية لها أهمية كبيرة في تاريخنا القومي؛ لأنها تمثل رابطًا بين الفن المصري في الحقبة الفرعونية والفترات الرومانية اليونانية من جهة، والعصر الإسلامي العربي من جهة أخري. كما أنها تشكل مرحلة جديدة من آثار الحضارة المسيحية المبكرة، فالفن القبطي ليس انعكاسًا فقط للاتجاهات الفنية المتعلقة بالأديرة والكنائس من أجل الأهداف الدينية بل إنه يكشف الوصف الحقيقي للحياة اليومية المعاصرة.

وتتنوع الآثار القبطية ما بين كنائس وأديرة ومنحوتات ورسوم جدارية وفنون صغرى ومخطوطات. ويحتوي المتحف القبطي على مُعظم النماذج الأثرية التي تم جمعها من مناطق أثرية مختلفة، وعلى مدى حقب زمنية مختلفة.

نهضت العمارة القبطية بروح الفن الفرعوني القديم وأكملت حلقة من حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة الفرعونية والحضارة اليونانية والرومانية بمصر. وتُعد مسألة البحث عن حدود معمارية محددة خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديَّين من الأمور الصعبة التي تعوقها أسباب وعوامل كثيرة، لعل من أهمها تواضع الشكل والحجم والتصميم الهندسي المعماري المستخدم من قِبَل تلك الفئة تحت ضغوط اجتماعية مثل الاضطهاد والاحتلال الروماني. وخلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين بدأت حركة انتشار الكنائس والأديرة في مصر، وكان التخطيط

البازيليكي هو السائد في تلك الفترة، والذي يتكون من صالة كبرى مقسمة إلى ثلاثة أجزاء أكبرها الصالة الوسطى. ويتم التقسيم بواسطة صفين من الأعمدة التي تبدأ من المدخل حتى الحنية الشرقية، وقد بلغ هذا الطراز أقصى حدوده في بازيليكا الأشمونين (هيرموبوليس ماجنا)، كما ازدهرت في الفترة المبكرة كنائس ذات ثلاث حنايا بأشكال مختلفة سواءٍ كان الشكل دائريًا أو بيضاويًا.

وتكونت الكنيسة بشكل عام من بهو خارجي مكشوف، وصحن أو صالة وسطى مع الجناحَين المكونَين للشكل البازيليكي، ثم الهيكل الأوسط الخاص بالشمامسة والمرتلين أثناء تلاوة القداس، وهو يرتفع عن سطح أرضية الصحن. هذا الهيكل الخشبي المزخرف يُستخدم في بعض الكنائس كحامل للأيقونات، يليه الهياكل الثلاثة التي يقع بداخلها المذبح ثم المدرج الرخامي الذي يتكون من أربع أو خمس درجات على شكل دائري يعلو القبة أو الحنية التي يُصَوَّر عليها عادة المسيح فوق العرش. أما المعمودية فتتخذ عادة شكل حوض عميق من الرخام أو الحجر مستدير الشكل، في بعض الكنائس نجد له حجرة مستقلة في الجهة الجنوبية للكنيسة، وفي البعض الأخر نجده في البهو الخارجي.

تلك العناصر المعمارية يمكن تتبعها في كنائس المعلقة، وأبي سرجه، ومارجرجس، والقديسة بربرة، وكنيسة أبي سيفين، وكنائس دير أبي مينا، وهناك مثالان من بين الكنائس التي يمكن تقييمها كوحدة معمارية بعد القرن السابع الميلادي؛ المثال الأول كنيسة سانت كاترين، والمثال الثاني كنيسة فرس بالنوبة.

حظيت كنائس مصر القديمة بالرعاية المستمرة خلال العصر الإسلامي، فقد تعرضت للتلف عندما احترقت الفسطاط وجُدِّدَت في عهد هارون الرشيد العباسي والعزيز بالله الفاطمي. ويبلغ عددها عشر كنائس تتخذ التخطيط المستطيل والمربع. وتشمل هذه الكنائس الكنيسة المعلقة، وكنيسة أبي سرجة، وكنيسة القديسة

بربارة، وكنيسة قيصرية الريحان، وكنيسة أبي سيفين، وكنيسة الأنبا شنودة، وكنيسة العذراء، وكنيسة بابليون الدرج، وكنيسة أبي كير ويوحنا، وكنيسة الأمير تادرس المشرقي.

تتخذ بعض هذه الكنائس التخطيط المستطيل المتكون من الواجهة ودهليز المدخل المستعرض والأروقة الطولية والهياكل، كما في الكنيسة المعلقة، وكنيسة أبي سرجة، وكنيسة القديسة بربارة، وكنيسة أبي سيفين، وكنيسة الأنبا شنودة، وكنيسة بابليون الدرج، ويتخذ البعض الآخر التخطيط المربع؛ كما في كنيسة قيصرية الريحان، وكنيسة الأمير تادرس المشرقي.

تزخر مصر بكنوز عديدة من الآثار القبطية؛ لتؤكد براعة الفن القبطي على مدى عصور مختلفة، وتحكي جزءًا من تاريخ المسيحية في مصر.

تُعد محطات رحلة العائلة المقدسة داخل مصر من أبرز المناطق الأثرية القبطية، ويُعتبر الدير المحرّق من أهم المحطات التي مكثت بها العائلة المقدسة، ويشتهر هذا الدير باسم "دير العذراء مريم"؛ حيث قضت العائلة في هذا المكان أطول الفترات "٦ أشهر و ١٠ أيام" من إجمالي الفترة التي قضتها العائلة المقدسة على أرض مصر والتي تصل لأكثر من ٣ سنوات ذهابًا وإيابًا، قطعوا فيها مسافة أكثر من ألفي كيلو متر، وشملت نحو ٢٢ محطة بدأت من "رفح" وانتهت بـ "جبل دُرنكة" بأسيوط؛ وهو يُمثل المحطة ما قبل الأخيرة لرحلة العائلة المقدسة قبل أن تصل لجبل أسيوط في صعيد مصر؛ لتقيم بمغارة قديمة منحوتة في الجبل والذي أصبح الآن يحمل اسم "جبل دُرنكة" ثم أقيم دير يحمل اسم "دير دُرنكة".

تعتبر الغرفة أو المغارة التي سكنتها العائلة في "جبل قسقام" بأسيوط جنوب مصر هي أول كنيسة في مصر بل في العالم كله. ويعتبر مذبح كنيسة "السيدة العذراء الأثرية "بالدير المحرّق في وسط أرض مصر ليتحقق ما جاء بأشعيا النبي

"وفي ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر". وتُعَـدُّ هذه الكنيسة ذات المذبح الواحد هي أهم معالم الدير وإليها يأتي مصريون وأجانب. ويوجد بالدير مخطوط يشتمل على أطروحات وأناجيل "دورة عيد الصليب المجيد" حسب ترتيب دير المحرق.

ويُطلق على كنيسة العذراء بالدير المحرّق "أورشليم الثانية" و"جبل الزيتون رقم ٢"؛ نظرًا للكرامة التي نالتها بعد تدشين الرب لمذبحها، عندما ظهر نور عظيم من الصورة والصليب ملأ الكنيسة كلها في داخل الهيكل وخارجه في ليلة عيد القيامة المجيد في إحدى السنوات. ويعتبر هذا الحدث لم يحدث له نظير في أية كنيسة أخرى في العالم إلا في كنيسة القيامة بمدينة أورشليم.

وإذا نظرنا إلى الأيقونات القبطية التي تزين الكنائس والأديرة الأثرية لاكتشفنا إلى أي مدى انتقلت ملامح الفن الفرعوني إلى الفن القبطي. ففي تلك اللوحات التي رسم فيها الفنان ملامح القديسين والشهداء سنجد الكثير من زخارف الفن المصري القديم كاستخدام علامة "عنخ" أو مفتاح الحياة التي كانت بداية رسم الصليب. والسمكة التي كانت رمز الخصوبة عند المصري القديم نسبة إلى السمكة التي لقمت العضو الذكري لأوزوريس، وبعد الفتح العربي يحدث تبادل بين الفنان المسلم ونظيره القبطي في الفنون فدخلت على الأيقونة الكتابة العربية مثل "عوض يا رب عبدك". ونقل الفنان القبطي إلى الأيقونة بعض الزخارف الإسلامية مثل شجرة السرو وهي وحدة زخرفية ظهرت في الفن العثماني، كما رسم الفنان القبطي بعض القديسين وهم يرتدون العمامة.

اللغة القبطية

إن اللغة هي أساس عملية التواصل بين الأفراد، ويتم التعبير من خلالها عما بداخل الإنسان من مشاعر وأحاسيس وأفكار وخواطر، وبها يتفاعل مع المجتمع في

قضاياه. وقد استُخدمت اللغة في الأشعار والقصص الدينية والشعبية والطقوس والصلوات والتقاليد والعادات وما أعيد تمثيله حسيًّا من قيم ومبادئ على شكل قوانين وأعراف وعادات اعتمدها المجتمع. وتُعدُّ اللغة القبطية من أهم المقومات التي ساعدت على ازدهار الحضارة والثقافة القبطية.

واللغة القبطية تمثل المرحلة الأخيرة من لغة مصر الفرعونية، وقد مثلت اللغة القبطية أهمية قصوى بالنسبة لعلماء اللغة ابتداءً من شامبليون في القرن التاسع عشر، الذي ساعدته معرفته للغة القبطية على فك طلاسم الهيروغليفية.

وتتكون اللغة القبطية من أربعة وعشرين حرفًا مُقتبسًا من الأبجدية اليونانية، وأضافوا إليها عددًا من العلامات التي استعاروها من الديموطيقية اختلف عددها حسب اللهجة سواء كانت صعيدية أم بحيرية.

وللغة القبطية خمس لهجات أساسية تنتمي كل لهجة منها إلى منطقة محددة من المناطق المصرية:

١- اللهجة البحيرية: ومن المحتمل أنها كانت لهجة ممفيس والدلتا، وبحلول القرن الحادي عشر أصبحت اللهجة البحيرية هي اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية، وبمرور الوقت أصبحت البحيرية هي اللهجة الوحيدة المستخدمة للصلوات في جميع الكنائس من الإسكندرية إلى أسوان، وبتوقف اللهجة الصعيدية عن الاستخدام للتخاطب في الحياة اليومية في أواخر القرن السادس عشر، صارت اللهجة البحيرية هي اللهجة الوحيدة المعروفة لدى الأقباط؛ بسبب استخدامها في الصلوات في جميع الكنائس حتى الآن. ويُلاحظ أن البحيرية أكثر اللهجات تأثرًا بالمفردات اليونانية؛ وذلك لقربها من مواطن الثقافة اليونانية في مصر.

٢- اللهجة الفيومية: وكانت هي المستخدمة في المنطقة المحيطة بواحة الفيوم.

٣- اللهجة الأخميمية: وكانت هي المستخدمة في المنطقة التي تحيط بمدينة أخميم في مصر العليا.

٤- اللهجة دون الأخميمية: ومن المحتمل أنها كانت مستخدمة في منطقة أسيوط في مصر العليا.

٥- اللهجة الصعيدية: التي كانت مستخدمة في منطقة طيبة، وهذه اللهجة تمثل الشكل الكلاسيكي المستخدم في الأدب والكتابة، وقد كانت أقدم الكتابات المدونة باللغة القبطية باللهجة الصعيدية التي كَتبها القديسان أنطونيوس وباخوميوس اللذين كانت كتاباتهما عبارة عن سير القديسين والرسائل وقواعد السلك الذي تسير عليه أديرتهم، وقد كان الأنبا شنودة هو أكثر الكُتاب غزارة في الإنتاج.

وقد كتبت معظم هذه النصوص على الرق (الجلد)، بالرغم من كتابة العديد منها على أوراق البردي أو على الحجر أو قطع الفخار (أوستراكا).

وبعد القرن التاسع بدأت اللهجة الصعيدية تفقد مكانتها تدريجيًا كلغة أدبية وحتى القرن الحادي عشر، فاحتلت اللهجة البحيرية تلك المكانة.

تعتبر اللهجة الصعيدية هي بالفعل أغنى اللهجات؛ حيث نجد أن الوثائق المكتوبة باللهجة الصعيدية تفوق عدد الوثائق المكتوبة بجميع اللهجات الأخرى.

مصر - مهد الرهبنة

تعتبر الحركة الرهبانية أحد أكبر إسهامات مسيحيي مصر؛ وهي من الممارسات التي بدأت تتطور في وقت مبكر من تاريخ الكنيسة المسيحية، ثم نظّمها القانون الكنسي وكبار القديسين.

وتعني الرهبنة أن يعيش الفرد حياة عُزلة تامة بعيدة عن العمران؛ للانقطاع للعبادة وممارسة حياة الزهد والتنسك مع اختيار التفرد طوعًا. أما الديرية فهي التقاء جماعات من الرهبان بعيدًا عن العمران ينقطعون للعبادة وحياة الزهد والتقشف مع تحقيق أبسط مطالبهم الضرورية في الحياة. وكانت من أهم مقومات الرهبنة القدرة على التحمل والمعاناة وكذا التفرد في الألم والمعاناة.

وقد بدأت الرهبنة بطريقة فردية؛ حيث ينفرد الراهب في مغارة يقضي فيها حياته منعزلاً عن البشر، ثم تطورت بعد ذلك وصارت في شكل تجمعات ديرية منظمة، وقد وضعوا لأنفسهم نظمًا وقوانين التزموا بها، وسار عليها مَن تبعهم.

ولم تكن ظاهرة العُزلة ظاهرة جديدة ارتبطت بظهور المسيحية بل إن المواطن المصري في العصرين اليوناني والروماني قد لجأ إلى ظاهرة الخروج إلى الصحراء والاعتصام بها كنوع من الاحتجاج الصامت ضد الاستبداد السياسي والعنف الاقتصادي.

وكلمة الرهبنة Monasticism مشتقة أصلاً من الكلمة اليونانية μovoς والتي تعني وحيدًا.

ولعل طبيعة مصر الجغرافية؛ حيث يتجاور المعمور والصحراء مكنت لكل من يبحث عن عُزلة جغرافية اللجوء إليها من الاضطهاد ومن ثَمَّ المحافظة على عقيدته الدينية.

إن المسيحية وما حوته من تعليمات ومبادئ بعيدة عن الماديات؛ تعليمات تبحث عن الذات الداخلي أو الروحاني وجد فيها المسيحي ضالته، وحثته على حياة التقشف والترفع عن ملذات الحياة، وفي الكتاب المقدس ما يشير إلى ذلك في إنجيل متى (٢١:١٩)؛ إذ نجد شابًا غنيًا قد ذهب للمسيح، وسأله عما إن كان

بإمكانه الانضمام إلى تلاميذه فأجابه المسيح بقولته الشهيرة: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز من السماء».

كانت بداية الرهبنة متواضعة جدًّا تأصلت في أطراف الصحراء ثم أصبحت نمطَ عيشٍ لآلاف الرجال والنساء. ومنذ السنوات الأولى التي تلت تأسيس الحركة الجديدة، اشتهرت مصر في العالم القديم بكثرة أديرتها وطهارة ونقاء نسّاكها ورهبانها. وكان القديس بولا الطيبي أول مَن سلك حياة الصحراء وعاش حياة النسك والعبادة الخاصة، وذلك في عهد الإمبراطور الروماني ديكيوس (٢٤٩-٢٥١م) وهو يعتبر المثل الأول للمتوحدين الانفراديين، وقد تثقف بثقافة عصره المزدوجة (الثقافة الإغريقية المصرية) ودرس أصول الدين المسيحي دراسة وافية.

غير أن المؤرخين ينسبون تأسيس الحركة الرهبانية إلى القديس أنطونيوس الأكبر وأبي الرهبان، الذي كرس نفسه لحياة الزهد في مغارة وادي عربة الواقعة على منحدر المرتفعات الجنوبية لـجبل الجلالة على بُعد ستين كيلو مترًا من شواطئ البحر الأحمر، وأقام تلاميذه في واحة على سفح الجبل. وهكذا تأسست أول نواة للدير في أواسط القرن الرابع الميلادي، ومن ثم اقترن اسم القديس أنطونيوس بنمط الحياة الجديد المؤدي إلى الخلاص.

أما أول مَن وضع قواعد للرهبنة احتذى بها الغرب فهو القديس باخوميوس، اعتمدت هذه القواعد على أن احتياجات الفرد تخضع لمتطلبات المجتمع، وأن هناك مجموعة من القوانين والقواعد تحكم حياة الراهب. وقد أُطلق على هذا النظام مصطلح «الشركة»، كما قام بتدوين وكتابة مجموعة من الأحكام الكنسية التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية في نهاية القرن الرابع الميلادي من قِبل القديس جيروم. وقد أصبحت الأديرة بفضله مراكز إشعاع ثقافية؛ فقد عمل على دمج العبادة مع العلم والثقافة.

كما كان هناك العديد من الرهبان الذين كان لهم بصمة واضحة في تطور الرهبنة؛ ومنهم الأنبا شنودة، والأنبا مقار اللذان التزما بأقصى درجات التقشف.

وقد نشأت جماعة أخرى في منطقة طيبة بالقرب من صومعة القديس بالامون الذي لقَّن الأنبا مقار قواعد الرهبنة، وإذا جاز اعتبار القديس أنطونيوس أبا الحركة الرهبانية، فإن القديس باخوميوس هو الذي وضع لها نظامًا وقواعد؛ فخضعت حياة كل راهب لجملة من القواعد الدقيقة ولنظام صارم؛ وهو النظام الذي تبناه الغرب فيما بعد. فقد تحدث جيروم Jerome hieroninus أبو الكنيسة اللاتينية في القرن الرابع عن نشأة الحركة الرهبانية في العالم المسيحي جاعلاً مصر مهدها ومركز انتشارها إلى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان.

تأسست عشرات الأديرة في صحاري مصر وعلى امتداد وادي النيل؛ ومنها دير القديس أنطونيوس بالبحر الأحمر، ودير القديس بولا الطيبي، ودير البراموس، ودير الأنبا مقار، ودير القديس بشوي، ودير السريان، ودير القديس صموئيل في الفيوم، ودير القديس مينا في صحراء مريوط.

بطاركة وآباء كنيسة الإسكندرية

لعب بطاركة وباباوات الإسكندرية دورًا قياديًّا في اللاهوت المسيحي، تحت سلطة الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالقسطنطينية (ضد الإمبراطورية الغربية بروما).

إن كتاب تاريخ البطاركة عمل تاريخي للكنيسة القبطية، مكتوب باللغة العربية، ولكنه يعتمد على مصادر يونانية وقبطية؛ فقد قام الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (هرموبوليس) بالصعيد بتسجيل سير البطاركة من القديس مرقص كاروز الديار المصرية إلى البابا شنودة الأول (بابا الإسكندرية) البطريرك ٥٥ (٨٥٩ - ٨٨٠م)، ثم جاء بعده الأنبا ميخائيل أسقف تنيس وسجل سير البطاركة

من البابا ميخائيل الأول البطريرك ٥٦ (٨٨٠ - ٩٠٩م) إلى البابا شنودة الثاني (بابا الإسكندرية) البطريرك ٦٥ (١٠٣٢ - ١٠٤٦م)، ثم جاء موهوب بن منصور بن مفرّج الإسكندري وسجل سيرة البابا خرستوذولس الأول (بابا الإسكندرية) البطريرك ٦٦ (١٠٤٧ ـ ١٠٧٨م).

أما أقوال الآباء فهي الأقوال النسكية التي دعمت الرهبنة وبيَّنت ناحيتيها النفسية والعملية. وقد وفد على مصر من الشرق والغرب من دوَّنوا هذه الأقوال وأثبتوها بلغاتهم اليونانية واللاتينية والسريانية، وفتحت لهم هذه التعاليم المسيحية المحضة الطريق إلى الرهبنة فساروا على هدايتها ونسجوا على منوالها. فالرهبان القبط في عصورهم الأولى عرفوا بالتقوى والتواضع فكانوا يعملون ويعلمون وجاءت أقوالهم بلغات مختلفة في كتاب بستان الرهبان وكتاب الأباء الحاذقون في العبادة وكذلك في سيرهم. وظهر في مصر من القديسين الأقباط من لم يعرف العالم أقوى منهم شكيمة في تثبيت المسيحية والكفاح ضد الوثنية.

أحد هؤلاء القديسين هو الأنبا شنودة رئيس المتوحدين. تولى شنودة رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣م خلفًا لخاله الأنبا بيجول رئيس الدير الأحمر شمال الدير الأبيض، ودامت رئاسة شنودة ٦٦ عامًا وتوُفي سنة ٤٥١م. ويُعَدُّ شنودة أعجب شخصية أنجبها القبط فهو في الواقع المؤسس الحقيقي للكنيسة القبطية. عاش في أحرج الأوقات وأعنفها ويعرف في تاريخ الأدب القبطي بأنه أعظم كُتَّابه. وكان كل مجهوده ونشاطه الإداري منصبًّا على محاربة الوثنية واقتلاع جذورها من الشعب مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبي والبدع الاجتماعية المختلفة. وكانت كتابات شنودة كتابات عملية صالحة لاستخدامها مباشرة كالرسائل والمواعظ، ولم يكن أسلوبه مصقولاً، ولكنه كان يسوغه في قالب خطابي بليغ. وهو بالرغم من معرفته باليونانية فإنه لم يأخذ عنها البيان أو البديع، ولكنه كان مالكًا لناصية اللغة القبطية وغيورًا عليها وكانت كل خطاباته بها.

هذه ترجمة نبذة من خطابات الأنبا شنودة رئيس المتوحدين عن موالد الشهداء فيقول: (جميل جدًّا أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد؛ ليصلي، ويقرأ وينشد المزامير، ويطهر نفسه، ويتناول من الأسرار المقدسة في مخافة المسيح. أما من يذهب؛ ليتكلم، ويأكل، ويشرب، ويلهو، أو بالحري يرتكب الجرائم فهذا هو الشرير بعينه. فبينما البعض يرتلون في الداخل المزامير ويقرأون الكتاب المقدس ويتناولون الأسرار المقدسة، إذ بآخرون في الخارج يملاؤن المكان بآلات الطبل والزمر مخالفين الآية "بيتي بيت الصلاة يدعي وأنتم جعلتموه مغارة لصوص"، لقد جعلتموه سوقًا لبيع العسل والحلي وما أشبهه، لقد جعلتم الموالد الروحية فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق خيولكم، جعلتموها أماكن للسرقة؛ فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المشاحنين أو يستخلص لنفسه شيئًا من الفائدة نظير أتعابه، حتى الأشياء التي لا يمكن أن تحدث للباعة في الأسواق العامة تحدث لهم في موالد الشهداء).

الأدب القبطي

هو الأدب الذي كُتِب باللغة القبطية أي اللغة المصرية القديمة باستخدام الأبجدية اليونانية مع إضافة بعض الحروف (بين خمسة وثمانية على حسب اللهجة). سواءً أكان مؤلفًا أساسًا بهذه اللغة أو مترجمًا إليها.

أما الأدب الذي يكتبه أقباط بلغة أخرى غير القبطية فهذا يمكن أن نطلق عليه أدب الأقباط وليس الأدب القبطي، مثلما كان يكتبه سلامة موسى أو مكرم عبيد أو غيرهم، وهو ليس أدبًا دينيًا فمثلاً قصة قمبيز وإسكندر هي قصص شعبية ولكن لأن معظم المواقع الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة هي مبانٍ دينية مثل أديرة أو كنائس فلذلك ما وصلنا في معظمه هو أدب ديني سواءً كان يمثل المسيحية السليمة أو المذاهب المنحرفة مثل الغنوصية أو أتباع ماني وغيرهم.

أثرت المسيحية في مفاهيم وتفكير عامة الشعب وأدت إلى ظهور هذا النوع الجديد من الأدب؛ وهو في الغالب أدب ديني به موضوعات إنجيلية ولاهوتية. وفي عام ١٩٤٦ تم اكتشاف برديات نجع حمادي التي تضم بعض الأناجيل الأبوكريفية، مثل إنجيل يوحنا وإنجيل المصريين - ويطلق عليه الكتاب المقدس للروح الخفي الأعظم - ورؤيا يعقوب إنجيل توما، وهو يضم بعض الذين تركوا عبادة الأوثان واعتنقوا الديانة الجديدة.

وفي أوكسيرنخوس تم اكتشاف العديد من البرديات القبطية التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي مما يدل على وصول المسيحية إليها قبل هذه الفترة.

مع الاعتراف بالمسيحية في القرن الرابع نجد هناك عددًا كبيرًا من البرديات القبطية التي تتناول نصوصًا مسيحية تُفسر التعاليم المسيحية وبها اقتباسات من إنجيل لوقا ويوحنا، وكذلك مجموعة من الترانيم، كما كانت هناك مجموعة أخرى تتعلق بسير القديسين Act Apostolram مثل قصة الأنبا شنودة، وهناك برديات أخرى تتناول فترة اضطهاد دقلديانوس، وبرديات أخرى تتناول قصص الشهداء، وأخرى تتناول الأعياد المسيحية، وقد كُتبت غالبية هذه المؤلفات باللغة القبطية، وقليل منها باليونانية؛ إذ كان غالبية مؤلفيها من رجال الدين. وُجدت هذه المؤلفات جنبًا إلى جنب مع المؤلفات اليونانية ومسرحيات لكبار الكُتَّاب والشعراء الإغريق.

أجمع مؤرخو الكنيسة في العصور الرسولية مثل يوسابيوس وسقراط وسوزومين على أن الفضل في انتشار المسيحية إنما يرجع إلى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية القبطية والتي أسندت إدارتها إلى علماء من الأقباط مثل بانتينوس وكليمنس وأوريجنيس وديديموس الضرير. ونصت تواريخ الكنيسة على أن كبار آباء الكنيسة المسيحية في الشرق والغرب كالقديس باسيليوس الكبير وغريغوريوس أخيه وغريغوريوس الناطق باللاهوتيات مدينون لمدرسة الإسكندرية القبطية. وذكر

جيروم في مقدمة ترجمته اللاتينية "لكتاب انبثاق الروح القدس" للعالم القبطي ديديموس الضرير أن ما جاء في مؤلفات أوغطينوس وأمبروسيوس وغيرهما من الموضوعات منقول عن الفلسفة المسيحية المصرية.

وبالتالي كان للأقباط اليد الطولى في وضع أسس علم اللاهوت، فقام بانتينوس أول من أسندت إليه إدارة مدرسة الإسكندرية بترجمة الكتاب المقدس من اليونانية إلى القبطية، وهذا أوريجنيس أول من أقام علم اللاهوت على أسس منظمة، وإليه يرجع الفضل في تثبيت عقائد الكنيسة والذي اهتم كثيرًا بإدخال علم الفلسفة في مدرسة الإسكندرية، وقد أدخل إلى برنامج الدراسة اللاهوتية الرياضة والطبيعة والفلك والفلسفة والموسيقى. ونجد أيضًا أثناسيوس القديس القبطي الصميم تثقف بثقافة اليونان ووقف في وجه جميع الأباطرة والهراطقة وصار لا يفكر ولا يكتب ولا يعمل ولا يناضل إلا من أجل حماية المسيحيين من مخالب البدع وفتح باب الإيمان المسيحي القويم لهم؛ حيث كان لما كتبه القديس أثناسيوس في محاربة الأريوسية وغيرها من البدع، وأيضًا كتابه "تجسد الكلمة" أثر كبير جدًّا في المحافظة على كيان المسيحية في العالم. فضلاً عن القديس كيرلس الكبير الذي كان بطريركًا للكرسي المرقسي واكتسب لمصر شبه استقلال وكانت تخضع له مائة أسقفية حتى أُطلق عليه لقب فرعون مصر، وكان جهاده ضد النسطورية وتعاليمه اللاهوتية في طبيعة المسيح وسر الثالوث من العوامل شديدة الأثر في إرساء تعاليم الكنيسة الأولى الرسولية.

وأيضًا العالم القبطي ديديموس الضرير الذي عُيِّن مديرًا للمدرسة اللاهوتية بالإسكندرية في القرن الرابع، وكان من أثر مؤلفاته اللاهوتية أن وفد عليه من الغرب إيرونيموس وروفينوس وبلاديوس لتلقي العلم منه، والعالم القبطي ديديموس الضرير هو أول من ابتكر وسيلة لتعليم القراءة للمكفوفين بطريقة

الحروف المحفورة على ألواح خشبية ليسبق بخمسة عشر قرنًا من الزمان اختراع برايل لطريقة القراءة بالحروف البارزة.

كذلك يرجع للقبط كتابة الأدب المعروف بالمريمي؛ وهو الأدب الذي اختصت به العذراء مريم، وذلك في أسلوب فريد يظهر فيه تأثير الأدب المصري القديم فكتبوا فيها المدائح والأناشيد.

ليس الأدب القبطي أدبًا دينيًّا فحسب، بل إن الآثار الدينية الدنيوية في الأدب القبطي لا تقل روعة عن الآثار الدينية، فبالرغم من انصراف الأقباط عن تدوين الأداب القبطية في العصور الأولى؛ لغلاء ورق البردي فإنه تم العثور على الكثير من الرسائل والوثائق القبطية عن الأدب القبطي الديني والشعبي. وازدهر الأدب القبطي في القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين، ولكن كان دخول العرب لمصر صدمة عنيفة للأدب القبطي إلا أنه صحا مرة أخرى في النصف الأخير من القرن السابع الميلادي وفي القرن الثامن الميلادي فقامت بين القبط نهضة أدبية كان لها الطابع الشعبي أكثر من الطابع الديني، وكان وقتئذ نظام الأديرة أقل صرامة؛ بحيث أُتيح للرهبان الاشتغال بشتى الحرف، فقد أصبحوا يقرأون الكتب الدنيوية في الأديرة وبخاصة أن الورق قد حل محل البردي وأصبح في متناول الجميع.

ومن أهم الأعمال الأدبية الشعبية القبطية قصة تيودوسيوس وديونسيوس التي ترجع إلى أوائل القرن الثامن، وأيضًا من أشهر قصص الأدب القبطي؛ رواية قمبيز؛ وهي قصة أصلية باللغة القبطية تتضمن تاريخًا خياليًّا لغزو مصر على يد الملك قمبيز ملك الفرس. وبالإضافة لهذه القصص تم العثور على بعض الأجزاء من قصة الإسكندر الأكبر مترجمة إلى الصعيدية. وهناك آثار أدبية كثيرة منها أيضًا القصيدة التي كُتبت عن أرخليدس وأمه سنكليتكس. ويدل كل هذا على ما للأقباط من أثر عميق في الأدب الشعبي.

العلوم التطبيقية القبطية

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة حضارة كما ورثوا عنهم المنهج العلمي والمثابرة على الدرس والتعمق في البحث، فقد تركزت دراسة العلوم في جامعة الإسكندرية وظهر فيها أساتذة من المصريين تخرج على أيديهم كثير من العلماء الذين عرفهم العالم القديم. ووضع القبط في الإسكندرية أكثر المصطلحات العلمية التي كانت معروفة في ذلك الوقت. وعنهم أخذها العالم وظهر في ذلك الوقت من العلماء الأقباط العالم هيروفيلاس مؤسس علم التشريع، والعالم القبطي إيرستسراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة، وكلسوس الذي وضع تذكرته المشهورة لمنع تلف الاسنان، وسيرابيون السكندري الذي اتجه إلى دراسة العقاقير المصرية القديمة. وممن تتلمذ في الإسكندرية جالينوس الذي ذاع صيته في العالم وغيرهم الكثير من العلماء الأقباط الذين كان لهم أكبر الدور في تقدم العلوم في العالم في ذلك الوقت.

ومنذ القرن الخامس حمل الرهبان الأقباط لواء العلوم في أديرتهم، وظلت هناك حتى ما بعد دخول العرب لمصر، وظهر من هؤلاء الرهبان كيرلس وكولوتوس ويؤانس. واشتهر منهم في القرن السادس يوحنا فيليبونوس النحوي الذي ألف في الأدب والطب والرياضة. ومنذ القرن السادس كان يتولى رجال الدين الأقباط تدريس العلوم في جامعة الإسكندرية القديمة، نذكر منهم سرجيوس وهارون القس.

وتظهر أهمية العلوم القبطية في بردية نشرها العالم القبطي، شاسيناه، وتميزت هذه البردية الطبية بعلاج أمراض العيون ومنع النزيف ومداواة الجراحات. وعلى العموم فقد ظل أثر العلوم القبطية في أوروبا في العصر الوسيط وكان أساسًا لدراسة العلوم في عصر النهضة. وقد ظهر أخيرا بحث للبروفيسور الإنجليزي تيل في العقاقير القبطية يتبين منه مدى تقدم العلوم عند الأقباط وأثره في العالم. وكان

للأقباط أثر واضح في بعض العلوم الأخرى؛ ففي التاريخ الكنسي كان لهم طابع خاص لم يكتبوه تاريخًا جافًا بل أضفوا عليه مسحة أدبية، لعل أهم ذلك ما نشره العالم فون ليم من بعض مقطوعات قبطية في تاريخ بطاركة الإسكندرية. وكان للسنكسار القبطي أثر كبير نسجت جميع الكنائس الأخرى على منواله، وكذلك كتب الأقباط بطريقتهم الخاصة تواريخ المجامع مثل مجمع الإسكندرية (٣٦٢م) ومجمع أفسوس(٤٣١م).

الأعياد القبطية

الأعياد نوعان:

١ - سيدية: وهي الخاصة بالسيد المسيح، وهي (أعياد سيدية كبرى، وأعياد سيدية صغرى).

٢- غير سيدية: وهي الخاصة بالسيدة العذراء والملائكة والرسل والشهداء والقديسين.

- الأعياد السيدية الكبرى:

١- البشارة: ٢٩ برمهات.

٢- الميلاد: ٢٩ كيهك.

٣- الغطاس: ١١ طوبة.

٤- الشعانين: الأحد السابع من الصوم الكبير.

٥- القيامة: الأحد الثامن من الصوم الكبير.

٦- الصعود: اليوم الأربعين من القيامة.

٧- العنصرة: اليوم الخمسين من القيامة.

- الأعياد السيدية الصغرى:

١- الختان: ٦ طوبة.

٢- دخول السيد المسيح الهيكل: ٨ أمشير.

٣- دخول السيد المسيح أرض مصر: ٢٤ بشنس.

٤- عرس قانا الجليل: ١٣ طوبة.

٥- التجلي: ١٣ مسرى.

٦- خميس العهد: الخامس من الشعانين.

٧- أحد توما: الثامن من القيامة.

الاحتفالات الشعبية

الموالد في المسيحية هي عيد شعبي ديني للاحتفال بيوم استشهاد أحد القديسين، فقد بدأت مثل هذه الاحتفالات على أساس تكريم القديس برفع الصلوات وإقامة القداس وقراءة سيرته بالتفصيل؛ للتشبه بقدوته الصالحة. ويعتمد الاحتفال في الأساس على تقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم الكنيسة إلى جانب نحر الذبائح؛ لإطعام الفقراء والمحتاجين وترتيل المزامير والأسرار المقدسة.

ظاهرة الموالد في مصر هي تقليد راسخ يعود إلى عصر الحضارة المصرية القديمة؛ فهي امتداد لاحتفالات مدن وقرى مصر القديمة بآلهتها التي كان يُحتفل بها كل عام باعتبارها حامية لتلك البلدان والمدن ورمزًا لها. ومع مرور الزمن ودخول المسيحية ثم الإسلام إلى مصر استعاض المصريون عن آلهتهم القديمة بالقديسين والأولياء وما لبثوا أن اتخذوا منهم رموزًا للمدن والقرى وأصبحوا يتبركون بهم وبأضرحتهم. وصل هذا التقديس في بعض الأحيان إلى إنشاء قرى جديدة حول تلك الأضرحة؛ لكي يستمدوا منهم الحماية والبركة، كما أقيمت لهم الاحتفالات

المنتظمة كل عام ممتدة على طول الخريطة في جميع مدن وقرى مصر بلا استثناء، بل إن القديس الواحد من الممكن أن نجد له أكثر من احتفال في أكثر من محافظة. وتختلف الموالد في أهميتها وشهرتها وهناك موالد تتخذ شكل عيد عام، وأهمها مولد العذراء التي يقام لها عدة موالد في مناطق مختلفة من الجمهورية مثل جبل الطير والزيتون بالمنيا ودرنكة بأسيوط.

وللموالد فوائد اقتصادية هامة فهي تساعد على بيع المحاصيل والسلع والمنتجات اليدوية، كما أن الموالد تلعب دورًا مهمًّا في توثيق العلاقات الاجتماعية بين الوافدين إليها من أبناء القرية الواحدة وإن تعددت مواطنهم الإقليمية، مما يؤدي في أحوال كثيرة إلى خلق فرص مواتية للزواج والتجارة والمشاركة في أنشطة اقتصادية.

والموالد القبطية تُقام عادة في شهر أغسطس بعد فترة صيام تكون النفس مهيأة بعدها للخروج من التقشف وأكل الأطعمة النباتية إلى أكل اللحوم وشراء مستلزمات الحياة.

وأهم هذه الموالد: مولد ماري جرجس بميت دمسيس إحدى قرى محافظة القليوبية، ومولد ماري جرجس بجبل الزريقات، ومولد العذراء بمسطرد، ومولد العذراء بالزيتون، ومولد العذراء بجبل الطير بالمنيا، ومولد العذراء بدير درنكة بأسيوط، ومولد برسوم العريان بالمعصرة، ومولد دميانة بالبحيرة، ومولد بلامون بسوهاج، ومولد العذراء ببني سويف، ومولد أبانوب بالبحيرة.

الطقوس الجنائزية

كان الدين هو المؤثر الواضح الذي لمسه الجميع وأجمعوا عليه من هيرودوت وسترابون إلى المقريزي، امتدادًا إلى جيبون وول ديورانت وفورستر وجمال حمدان وميلاد حنا، وإن اختلفوا في تحليل العناصر الأخرى.

إن المصري مفتور على الإيمان. وفكرة البعث والحياة الأخرى كانت وراء كثير من منجزاته الحضارية؛ فالحياة الأخرى شغلت جزءًا كبيرًا من تفكيره، وكرس لها الأهرامات ومراكب الشمس، وكانت رؤيته للمقبرة أنها منزل الحياة الأخرى، وهي بيت الجسد الذي حرص على سلامته؛ ليعود إلى استكمال رحلته الأخرى.

ولقد ظل المعتقد المصري في البعث والحفاظ على الجسد وتحنيطه قائمًا حتى القرن الثالث والرابع الميلاديين، وكذلك وضع القرابين وتماثيل المتوفَّى؛ حيث تمثل روحه وقرينها؛ للتعرف عليه في العالم الآخر.

ظهرت في الدولة الحديثة طريقة لعمل الأقنعة تسمي الكارتوناج؛ وهي طريقة عمل تماثيل من الخشب أو الحجر أو الجبس لرأس المتوفَّى بالحجم الطبيعي، والذي استمر استخدامه حتى العصر البطلمي وتطور في العصر الروماني. وقد اكتُشفت في الفيوم ومصر الوسطى والعليا وهوارة والشيخ عبادة وجوه عُرفت بوجوه الفيوم أو بورتريهات الفيوم. وأغلب المدن التي وُجدت بها كان سكانها خليطًا من اليونان والرومان والمصريين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية، فقد اعتنقوا التقاليد المصرية في الدفن والقائمة على التحنيط، وما يصاحبها من عادات. نُفذت تلك البورتريهات على ألواح خشبية بطريقة الشمع على هيئة أقنعة أو رسم على الكتان. تلك الرسوم اتسمت بملامح عامة في غالبيتها؛ وهي العيون الواسعة والشفاه الصغيرة والوجه البيضاوي، وصُور غالبية أصحابها في مرحلة الشباب، وهي الصور التي استُمدت منها بعد ذلك الأيقونات القبطية والبيزنطية. إن هذه الشواهد كانت في جزء كبير منها للوثنيين وبعضها للمسيحيين؛ إذ توارث المسيحيون تلك المعتقدات، وحافظ الرهبان عليها، وخصصوا مبالغ من المال للقرابين وصيانة مدينة الموتى. وتخبرنا إحدى النصوص القبطية أنه «حين يحل الموت، تأتي الملائكة؛ لتنقل روح الميت إلى السماء، وبعد ذلك يتولى الأحياء تكفين الجسد ودفنه».

كشفت لنا الحفريات الأثرية عن تقنيات معالجة أجساد الموتى المستعملة لدى الأقباط، فهم قطعًا لم يستخدموا التحنيط ولا تفريغ أحشاء الموتى كما كان يفعل المصريون القدماء، إلا أن مظهر هذه الجثث كان مدعاة للالتباس لدرجة أن البعض قد وصفها بـ «المومياوات القبطية»؛ نظرًا لحفظها الجيد. وأغلب الظن أن معظمها قد عُولج بالأملاح والنطرون، كذلك فإن جو مصر الرطب قد لعب دورًا في صيانة المومياوات؛ ففي مطلع القرن العشرين كشف عالم الآثار «ألبير جاييه» عن آلاف الجثث في مدينة الموتى «أنصنا». وكانت المومياوات تُلف بشرائط خفيفة من النسيج يعلوها أكثر من جلباب، الواحد فوق الآخر. كما عُثر أيضًا على أحذية وشالات، ومعظم الأكفان صُنعت من الكتان، يتم تحزيمها بجدائل من ألياف النخيل وشرائط معقودة بمهارة، ويتم وضع حبات البخور وثمار العرعر ونباتات أخرى توضع داخل الكفن، وعادة ما يحمل الجسد هوية صاحبه على هيئة ختم من الرصاص. وفي بعض الأحيان كان الكفن يُغطي كامل الرأس ويتجاوزه.

وكان الموتى عادة يُدفنون في باطن الأرض دون تابوت أو يوضعون على خشبة رقيقة، وغالبًا ما كان يُوَجَّـه رأس الميت باتجاه الغرب بينما تُوَجَّـه قدماه ناحية الشرق.

السحر عند الأقباط

ارتبط السحر في العصر الفرعوني بعبادات مصر القديمة، وفي العصر اليوناني كان المحور الرئيسي الذي تدور حوله برديات السحر هو الإله هيرميس تحوت إله الحكمة، وأُطلق على كتاب السحر اسم هيرماتيك، والذي وجدت نُسخ منه في أكسيرينخوس. اشتمل على ألفاظ وتعبيرات غريبة، إلى جانب أسماء الآلهة. أما في العصر المسيحي فقد تم ذكر المسيح والقديسين واقتباسات من الإنجيل والاستنجاد بالآلهة الغامضة من السحر الغنوصي، إلى جانب أدعية ورسوم ملائكية. ومن بردية سحرية تعود للقرن السادس الميلادي جاءت عبارات سحر ضد الأفاعي والأمراض.

السطور الأولي منها كانت على شكل هرم مقلوب، وكانت أغلب التمائم لا تُكتب في أسطر منتظمة يتبعها المضمون بالدعاء؛ لتخليص المنزل من الأفاعي الشريرة مع الإشارة إلى القديس لوكاس.

وهناك بردية أخرى تذكر فقرات من الإنجيل، وأسماء أربعين شهيدًا، والسحر ضد امرأة أخرى، وللحماية من الأخطاء، وتضرعات للمسيح. وهناك عدد من البرديات تتناول الشفاء من المرض والحمى، وإحداها تشمل أدعية من إنجيل يوحنا واستنجادًا بالعذراء والقديسين. ومازال الناس يلجئون إلى الأولياء؛ لاستشارتهم وطلب الشفاء، بل إن البعض يلجأ إلى السحرة وكتابة التعاويذ والأحجبة.

وبطبيعة الحال فإن للسحر القبطي خصوصية مصرية أكيدة، فهو على الرغم من تأثره بسحر اليهود والرومان؛ فإنه احتفظ بصفات مصرية خاصة. وفي مصر القديمة لم يكن هناك فصل واضح بين الدين والسحر، وفي اللغة القبطية يُدعى السحر أو سلطة الطقوس «هيك»، وعند قدماء المصريين تسمى الإلهة؛ حيث تترأس الشعائر ذاتها «هيكا» التي كانت تجسد السلطة الإلهية العليا المتجلية منذ بداية العالم والتي ثبّتت قدراتها في الطقوس العامة والخاصة.

ولا تزال الموضوعات والأهداف الموروثة عن مصر القديمة في مجال العزائم تلعب دورًا أساسيًا، وفي نص سحري محفوظ في برلين (٨٣١٣) يبدأ بعبارة «يسوع، حورس ابن إيزيس».

إن النصوص السحرية القبطية هي عبارة عن وثائق تتناول سلسلة من الطقوس التي من شأنها أن تمنح الأفراد القوة اللازمة؛ فبمجرد التكرار الشكلي لهذه الطقوس، يتشبث المؤمنون الأتقياء بهذه القدرة سهلة البلوغ طوال حياتهم. ومن المفترض أن يزود السحر القبطي الفرد بقدرة ما على معالجة المشاكل الطبية والدينية والاجتماعية. وهناك رق قبطي يصف علاجًا شعبيًا لمختلف الأمراض

مثل النقرس وأمراض العين ووجع الأسنان والحمى وآلام الولادة والأمراض الجلدية والصداع والاضطرابات العقلية وغيرها. ونجد مع العزائم وصفات تُستعمل لتحضير الجرعات الضرورية للأنشطة الطقسية، وإذا اتُّبعت تلك الوصفات بدقة فإن من شأنها حماية الشخص من السحر ومن كل ما يمت للشيطان بصلة.

الطقوس الدينية

الطقوس هي كلمة يونانية أيضًا وهي مشتقة من فعل بمعنى يرتب، وقد تعني سرايات الجيش كما في ميثودتوس، وتعني ترتيب.

إن الطقوس الدينية القبطية لها عدة مصادر، وعلى الرغم من أنها تتم داخل الكنيسة فإن هناك مصادر غير مسيحية. وصعوبة الموضوع أن الكتب الطقسية تُستهلك بسرعة؛ نظرًا لكثرة استعمالها، ومعظم المخطوطات حديثة وعليها بقع شمع نتيجة كثرة الاستعمال.

وحتى القرون الوسطى كان هناك طقس خاص للوجه القبلي وآخر للوجه البحري ولكن نتيجة الظروف السيئة والأوبئة والمجاعات وخلافه اندثر طقس الوجه القبلي ولم يبق منه الا الجزء اليسير الذي احتفظت به القليل من المخطوطات التي وصلتنا عن طريق مكتبة دير الأنبا شنودة (الدير الأبيض بسوهاج) أو مكتبة دير الحمولي وبعض المخطوطات المتفرقة هنا وهناك.

الطقوس القبطية تتبع السنة القبطية، والسنة القبطية أو المصرية تبدأ سنة ٢٨٤م، وهي سنة اعتلاء دقلديانوس العرش. وتتكون السنة من اثني عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا وشهر صغير يتكون من خمسة أو ستة أيام.

الليتورجيا وهي كلمة يونانية تعني أساسًا الخدمة العامة، كما وردت في يوسابيوس القيصري الكتاب الثامن، وتطور المعنى إلى خدمة بالمعنى العام مثل خدمة الرجال للآخرين (يوسابيوس القيصري)، وتطور المعنى إلى أعمال الخير كما

ورد في إحدى عظات يوحنا ذهبي الفم - العظة ٦٢- ومنها الخدمات الموسمية، ومنها خدمة لله وقد وردت في كتاب المتفرقات لكليمنس. وهذا المعنى أصبح بمعنى العبادة بصفة عامة، ومنها العبادة داخل الكنيسة، وقد يمتد المعنى إلى العبادات اليهودية.

القداس الإلهي

هناك بشكل رئيسي ثلاثة نصوص للقدّاس في الكنيسة القبطية، أقدمها هو قدّاس البابا كيرلس الأول؛ بحسب التقليد الكنسي فإن القديس مرقص مؤسس الكنيسة هو من وضع نصوص هذا القدّاس باليونانية وتم تناقله شفهيًا بين الأساقفة والقسس حتى تم تدوينه أول الأمر في القرن الرابع وإرساله إلى أثيوبيا؛ ليتمكن مسيحيوها من أدائه. وبعد ذلك قام البابا كيرلس الأول بتنقيحه وتعديله وإعادة ترتيبه وإضافة مجموعة من النصوص لإثرائه، وانطلاقًا من ذلك كان أصل التسمية. أما القدّاس الثاني فهو القداس المنسوب للقديس باسيل أسقف قيصرية. والثالث هو القدّاس المنسوب للقديس غريغوري النيقي أسقف القسطنطينية. ويعتبر القداس الباسيلي أكثر القدّاديس استعمالاً. بنية القدّاس القبطي تبدأ برتبة البخور؛ حيث يضع المحتفل بالقدّاس البخور في مبخرة وينفح الشعب والمذبح به بهدف التطهير، ومن ثم هناك تسبيحة الصباح أو المساء حسب موعد القداس، ولا تعتبر جزءًا منه بل أشبه بمقدمة لتهيئة المشاركين في أجواء الصلاة. يلي ذلك "القراءات"، وهي مجموعة من المقاطع المختارة من العهد الجديد للكتاب المقدس وتناسب الزمن الطقسي أو المناسبة التي يحتفل بها، ويفصل بين كل قراءة وأخرى مجموعة من الألحان والتسابيح القبطية التي تقوم الجوقة بأدائها. تبدأ بقراءة من سفر أعمال الرسل ثم رسائل القديس بولس وأخيرًا رسائل الكاثوليك الثمانية. بعد القراءات مباشرة يلقي المحتفل العظة، التي يشرح بها النصّ ويقدم معانيه. وبختام العظة يجب على غير المسيحيين أو غير المعمدين مغادرة الكنيسة، في حين

يظلّ من هو معمد داخلها، ويُدعى هذا القسم "قسم الكلمة" وهو ذو صلوات متبدلة بحسب المناسبة المحتفل بها، ويليه "طقس الإفخارستيا"، ولا يشارك به سوى المعمدين في طقس الكنائس الأرثوذكسية المشرقية عمومًا. ويبدأ طقس الإفخارستيا بصلوات التوبة والغفران؛ حيث يصلّي المحتفل من أجل الكنيسة والحكام المدنيين ومن ثم من أجل الجمع الحاضر. وفي ختامها يتبادل المشاركون "قُبلة السلام". وفي إثرها يقوم المحتفل برتبة "غسل الأيدي"؛ حيث يغسل يديه؛ ليبدأ صلوات التقديس التي فيها يتم استدعاء الروح القدس؛ ليحلّ على الخبز والخمر فيحولهما لجسد ودم يسوع، وهو أصل القداس الإلهي وجوهره، لتتم عملية المناولة أي توزيع القربان على المشاركين، في استذكار لما فعله يسوع مع التلاميذ الاثني عشر، وطلب منهم تكراره لذكراه.

التقويم القبطي وارتباطه بالزراعة

بالرغم من توارى التقويم القبطي في زاوية بعيدة وسط التقاويم الميلادية والسريانية والهجرية، ولا يأخذ مكانه في المكاتبات الرسمية، ولو سألت أحدًا عن تاريخ اليوم القبطي لما وجدت ردًّا إلا من الفلاح المصري الذى احتضن هذا التقويم، وظل يتوارث العمل به في زراعته منذ عرف هذا التقويم في عام ٤٢٤١ قبل الميلاد. والتقويم القبطي جزء من التراث المصري الفرعوني، لقد احتفظ أقباط مصر بنفس التقويم المصري القديم وشهوره التي ظلت كما هي بأسمائها الفرعونية بعد أن اتخذوا من عام الشهداء الذى استُشهد خلاله مليون قبطي على يد الإمبراطور الروماني دقلديانوس عام ٢٤٨ بداية للتقويم القبطي.

وللسنة القبطية ارتباط وثيق بتراث الأمثال الشعبية في مصر، ولا يخلو شهر من شهورها من مَثَلٍ أو أكثر.

شهر توت

يقع شهر توت في رأس السنة القبطية، في الفترة من ١١ سبتمبر إلى ١٠ أكتوبر.

شهر بابة

يأتي شهر بَابَه في الفترة من ١١ أكتوبر إلى ٩ نوفمبر.

شهر هاتور

من ١٠ نوفمبر إلى ٩ ديسمبر، وتكون فيه زراعة القمح مزدهرة.

شهر طوبة

ثم يأتي شهر طوبة، وشهر طوبة من ٩ يناير إلى ٧ فبراير، وهو من أكثر شهور السنة برودة وأيضًا يحتفل فيه الأقباط بعيد الغطاس أو عيد القلقاس.

شهر برمهات

من ١٠ مارس إلى ٨ إبريل، وفي هذا الشهر تمتلئ الحقول بالخضروات والمأكولات، وفى هذا الشهر أيضًا يكون الصيام الكبير، وبالتالي لا يأكل النصارى فيه أية لحوم.

شهر برمودة

يأتي شهر برمودة من ٩ إبريل إلى ٨ مايو. ويُنسب إلى إلهة الحصاد، أي دق سنابل القمح بعد نضجها.

شهر بؤونة

ثم يأتي شهر بَؤونة من ٨ يونية إلى ٧ يوليو؛ حيث إن هذا الشهر هو التالي بعد موسم الحصاد، وبالتالي نقل المؤن للاحتفاظ بها بقية العام، وكان التخزين إحدى عادات المصريون القدماء؛ خشية الفيضان الجارف أو انقطاع الفيضان.

شهر أبيب

ثم يأتي شهر أبيب، من ٨ يوليو إلى ٩ أغسطس؛ نسبة إلى أبيب أو هوبا أو حابى إله النيل. وفية يكون لون مياه النيل معكرًا نسبة للون الطمي في مياه الفيضان.

شهر مسرى

ثم تنتهى السنة القبطية بشهر مِسْرَى، من ٧ أغسطس إلى ٥ سبتمبر، وأصلها سي ري نسبة إلى إله الشمس رع.

الموسيقى والألحان القبطية

ورثت الكنيسة المصرية الألحان الفرعونية والمصرية القديمة، وأخذت أيضًا أجود الموسيقى والألحان من اليونان والسريان.

إن هناك ثلاثة مصادر للألحان الكنسية؛ وهي المصرية القديمة، والعبرية، واليونانية. أخذ جماعة المسيحيين الأولين ألحانًا من مصر القديمة، ووضعوا لها النصوص المسيحية؛ ومن بين هذه الألحان لحن (غولغوثا) الذي كان يستعمله قدماء المصريين أثناء عملية التحنيط وفي مناسبة الجنازات، ولحن (بين أثرونسي) الذي يشتمل نصفه الأول على نغمات حزينة تردد لوفاة الفرعون، ونصفه الآخر يشتمل على نغمات مبهجة تردد لزفاف الفرعون المنتقل إلى مراكب الشمس؛ لتصحبه إلى (رع) في دنيا الخلود.

كما أنه انسكبت موهبة التلحين الموسيقي الروحي في عصر من أزهي العصور الروحية للكنيسة على كثير من الموهوبين من أمثال:

١- كليمنضس السكندري: واضع لحن (تسبيحة المسيح المخلص).

٢- القديس أثناسيوس الرسولي: واضع لحن (الوحيد الجنس - مونوجينيس).

٣- مارأفرام السرياني: والمسمى بقيثارة الروح القدس.

٤- إيلاري من بأتية: (٣٨٦ م) أول مؤلف للألحان اللاتينية.

٥- إمبروسيوس: أمير اللحن اللاتيني.

إن الألحان القبطية نشأت مع الكنيسة نفسها، وتاريخ اللحن الكنسي بدأ مع القديس "مرقص" في الإسكندرية، فمن المعروف أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت مركزًا هامًّا للثقافة، وأن مار مرقص نفسه كان مثقفًا باللغات العبرية واللاتينية واليونانية، لذلك قام بإنشاء "مدرسة اللاهوت" والتي كانت تُدَرَّس فيها الموسيقى والفلسفة والمنطق والطب والهندسة إلى جوار العلوم الدينية، وعين لرئاستها العلامة "يسطس". وقد اُشتُهرت هذه المدرسة جدًّا حتى أنه كان يستمع إلى محاضراتها "أمونيوس السقاص" زعيم فلاسفة الوثنيين.

ومن بين الذين وضعوا ألحانًا قبطية وصاغوها: القديس "ديديموس الضرير"، والقديس "أثناسيوس الرسولي"، والقديس "غريغوريوس النزينزي الثيئولوغوس" والذي يقال أنه وضع لحن "أومونوجينيس - أيها الوحيد الجنس" باستخدام كلمات يونانية.

والتسبيحة هي المقدمة الأساسية لإقامة القداس الإلهي، يصليها الرهبان في الأديرة كاملة بألحانها كل ليلة، وهم في استغراقهم ونشوتهم يشعرون بأنهم في وحدة كاملة مع السماويين.

قال القديس باسيليوس: "إن الترنيم هو هدوء النفس ومسرة الروح، يسكن الأمواج ويسكت عواصف حركات قلوبنا، يطرد الأرواح الشريرة ويجذب خدمة الملائكة، وهو سلاح في مخاوف الليل". لذلك فالعهد القديم كله قائم على تسبيح الله، بل قيل عن عصر داوود النبي أنه عين "وأربعة آلاف مسبح للرب بالآلات التي عُملت للتسبيح وقسَّمهم داوود فرقًا «١أخ٢٣: ٥»".

عندما قام الباحثون بدراسة الموسيقى القبطية، وجدوا أنها تخضع للقواعد الموسيقية من حيث الأوزان، والضروب (الإيقاعات)، والمقامات، والنهايات الموسيقية، والتكوين السليم المتوازن للجملة الموسيقية. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى القديس "مار مرقص" الرسول الذي يُعتبر أول من بشّر في مصر، وأسس مدرسة اللاهوت بالإسكندرية التي تعلم فيها كبار الفلاسفة وتخرج فيها الكثير من البطاركة، والتي كان يُدَرَّس فيها العلوم الموسيقية.

إن الألحان القبطية غنية بالمقامات (السلالم) الموسيقية، وبها تحولات وانتقالات بين السلالم الموسيقية تشير إلى عبقرية الذين صاغوها، كما تحتوي على تغيرات في السرعات والإيقاعات تجعلها تأخذ مرتبة الريادة بين موسيقى الشعوب.

كما تتميز الألحان القبطية بأنها ألحان تعبيرية، تشرح معاني الكلمات الروحية بالتصوير النغمي.

Bibliography

- Adams, Laurie. **Art Across Time.** Boston: McGraw-Hill, 2002.
- **L'art copte en Egypte: 2000 ans de christianisme: éxposition prsentée à l'Institut du monde arabe, Paris, du 15 mai au 3 septembre 2000 et au Musée de l'Ephèbe au Cap d'Agde, du 30 septembre 2000 au 7 janvier 2001.** Paris: Institut du monde arabe; Gallimard, 2000.
- Arthur, D. N. **Late Egyptian Piety**. New York, 1994.
- Atiya, Aziz S. **A History of Eastern Christianity**. London, 1968.
- Atiya, Aziz Surya, ed. **The Coptic Encyclopedia**. New York: Macmillan, 1991.
- Averil, Cameron, **The Later Roman Empire AD 284- 430.** Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993.
- Badawy, Alexandre. **L'Art Copte: Les Influences égyptienne.** Cairo: l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1949.
- Badawy, Alexandre. **L'Art Copte: Les influences Helenistiques et Romaines**. Caire, 1953.
- Badawy, Alexandre. **The Copts in Byzantine and Islamic Egypt. Cairo**, 1968.
- Badawy, Alexandre. **Byzantine and Coptic Archaeology**. London, 1972.
- Beatrice, Laurie, **G. Symbols of Ancient Egypt**. London, 1965.
- Beckwith, John. **Coptic Sculpture 300- 1300**. London: A. Tiranti, 1963.
- Beckwith, John. **Early Christian and Byzantine Art**. New Haven: Yale University Press, 1993.

- Biedremann, Hans. **Dictionary of Symbols.** New York, 1992.
- Sinnigen, **William Gurnee, and Arthur E. R. Boak.** A History of Rome to 565 AD. 6th ed. New York: Macmillan, 1977.
- Bowman, Alan. **Egypt after the Pharaohs: 332 BC-AD 642 from Alexander to the Arab Conquest.** London: British Museum Press, 1986.
- Cannuyer, Christian. **Les Coptes.** [Turnhout]: Editions Brepols, 1996.
- Cooney, John. **Late Egyptian and Coptic Art in the Brooklyn Museum.** New York, 1943.
- Cooper, J. C. **An Illustrated Encyclopedia of Traditional Symbols.** London: Thames and Hudson, 1978.
- Costigan, G. H. **Sculpture and Painting in Coptic Art.** Cairo, 1937.
- Cross, F. L., and Elizabeth A. Livingstone, eds. The **Oxford Dictionary of the Christian Church.** New York: Oxford University Press, 1990
- Eliade, Mircea, et al., eds. **The Encyclopedia of Religion.** New York: Macmillan Library Reference, 1987.
- Emerson, Swift. **Roman Source of Christian Art.** New York, 1951.
- Eusebius, **The Ecclesiastical History.** London, 1926.
- Ferguson, George. **Signs and Symbols in Christian Art: With Illustrations from Paintings of the Renaissance.** New York: Oxford University Press, 1989.
- Fleming, Daniel, J. **Christian Symbols in a World Community.** New York, 1940.

- Gabra, Gawdat. **Cairo the Coptic Museum & Old Churches.** Cairo: The Egyption International Publishing Company, 1993.
- Gabra, Gawdat, and Marianne Eaton-Krauses. **The Treasures of Coptic Art: In the Coptic Museum and Churches of Old Cairo.** Cairo: American University in Cairo Press, [199-].
- Gabra, Sami. **Caractéres de L'Art Copte: Ses Rapports avec L'Art Egyptien et L'Art Hellenistiques.** Cairo, 1935.
- Gayet, **Al. L'Art Copte.** Paris: Ernest Leroux, 1902.
- Hanna, Shenouda. **Who are the Copts.** Cairo, 1967.
- Heather, Peter. **The Fall of Roman Empire.** London, 2006.
- Hinnells, John, ed. **The Facts on File Dictionary of Relgeion.** New York: Facts On File, 1984.
- Hope, Murry, trans. **La Magie égyptienne: Guide d'introduction aux pratiques magiques de l'Egypte ancienne.** Paris: Sand, 1994.
- Kamill, Jill. **Coptic Egypt: History and Guide.** Cairo: American University in Cairo Press, 1990.
- Kamill, Murad. **Aspects de L'Egypte Copte.** Berlin, 1965.
- Metford, J. C. J. **Dictionary of Christian Lore and Legend: 283 Illustrations.** London: Thames and Hudson, 1983.
- Milne, Joseph Grafton. **A History of Egypt Under Roman Rule.** London: Methuen, 1913.
- Mohrmann, Christine. **Atlas of Early Christian World.** Nelson, 1959.
- Moss, Christopher, and Katherine Keiefer. **Byzantine East, Latin West: Art-Historical Studies in Honor of kurt Weitzmann.** Princeton: Dept. of Art and Archaeology. Princeton University, 1995.

- Comte, Fernand. **Dictionnaire de la Civilisation Chrétienne.** Paris: Larousse, 1999.
- Perry, Glenn. **The History of Egypt**. Westport: Greenwood Press, 2004.
- Sylvestre, Chauleur. **Histoire des Coptes d'Egypte**, Paris: La Colombe, 1960.
- Rice, David Talbot. **Art of the Byzantine Era**. London: Thames and Hudson; New York: Frederick A. Praeger, 1989.
- Wand, J. C. **A History of Early Church to A. D. 500**. London, 1996.
- Watterson, Barbara. **Coptic Egypt**. Edinburg, 1988.
- Wessel, Klaus. **Coptic Art**. London, 1969.



